

الحساب الصحيح من ببيان الحكم الرشيد

بحث تفصيلي في بيان علم الحساب وأهميته في نصره الحق وإقامة الميزان

تأليف

زكريا يوسف محمد أبوقرين الطرابلسي

قال الشافعي رحمه الله:

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ
لَعَلِّي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهُ
وَأَكْرَهُ مِنْ تِجَارَتِهِ الْمَعَاصِي
وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَةِ

المحتويات

9

المقدمة

15

1 الميزان الكوني والميزان الشرعي

15

1.1 المقدمة

16

1.2 الغاية من علم الحساب

18

1.3 الميزان الكوني

22

1.4 الميزان الشرعي

27

1.5 الإرادة الكونية والإرادة الشرعية

31

1.6 الهداية الكونية والهداية الشرعية

33

1.7 الميزان بمعنى العدل والميزان المخلوق

35

1.8 الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته

39

1.9 الظلم يتنافى الميزان الكوني والميزان الشرعي

41	1.10 المراد بالعلم والميزان
42	1.11 أقسام الميزان الكوني
42	1.11.1 الميزان السبيي
49	1.11.2 الميزان الغيبي
54	1.12 أقسام الميزان الشرعي
54	1.12.1 الميزان الفطري
57	1.12.2 الميزان الديني
61	1.13 الغاية من إرسال الرسل وإزالة الكتب
64	1.14 تفاوت الرسل في العلم والفضل ودعوتهم واحدة
66	1.15 الإصلاح وأنواعه
69	1.16 الحكمة والرشاد
72	1.17 مكانة أهل العلم الشرعي
74	1.18 حال الأنبياء وأتباعهم مع الميزان الشرعي
76	1.19 حال الأمم مع الحق والميزان الشرعي
80	1.19.1 الدولة الكافرة الظالمة الهالكة
81	1.19.2 الدولة المسلمة الظالمة
84	1.19.3 الدولة الكافرة الظالمة
85	1.19.4 الدولة الكافرة العادلة
87	1.19.5 الدولة المؤمنة العادلة

90	1.19.6 ملخص حال الأمم
92	1.20 الحساب من صور الميزان والجهل به من الأمية
94	1.21 الحساب الصحيح هو الميزان
97	2 حساب الله
97	2.1 مقدمة
97	2.2 صفة العد والحساب
98	2.3 التجارة مع الله في الدنيا
98	2.4 يوم الحساب
98	2.4.1 البعث
98	2.4.2 الحساب يبدأ عند الميزان وقبل الجزاء
101	3 الحكم الرشيد
101	3.1 مقدمة
102	3.2 أركان الحكم الرشيد
105	3.3 شروط الحكم الرشيد
106	3.4 واجبات الحكم الرشيد
107	3.5 الحكم الرشيد في زمن الصحابة
110	3.6 الحساب في زمن الحكم الرشيد
114	3.7 عودة الحكم الرشيد في آخر الزمان

114	3.8	معادلات
115	3.9	نص الفصل الأول - الصفحة الثانية
116	3.10	نص الفصل الأول - الصفحة الثالثة

4 علم الحساب 117

117	4.1	مقدمة
117	4.2	أمثلة حسابية من القرآن والسنة
117	4.2.1	مكوث أهل الكهف
119	4.2.2	مكوث الوحي من عيسى عليه السلام إلى محمد ﷺ
119	4.2.3	عدد ساعات اليوم واللييلة
121	4.2.4	نسبية الوقت في القرآن
123	4.2.5	ظاهرة الغلاف الجوي
123	4.2.6	ظاهرة تعاقب الليل والنهار
124	4.2.7	ظاهرة توسع الكون
125	4.2.8	ظاهرة المجال المغنطيسي

5 الحساب الكوني 127

127	5.1	مقدمة
128	5.2	جداول
129	5.3	مراجع باستخدام BibTeX

5.4 نص الفصل الثاني - الصفحة الثانية 130

5.5 نص الفصل الثاني - الصفحة الثالثة 131

6 الذكاء الإصطناعي 133

6.1 مقدمة 133

6.2 المعرفة والوعي والإدراك 133

7 الملحق 135

7.1 مسألة العدل مع الكفار 135

7.2 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين 137

7.3 مسألة التفرق في الدين 141

7.4 مسألة ترجيح الأعيان 141

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العزيز العليم فائق الحب والنوى خلق كل شئ بقدر معلوم فقدره تقديرا. فائق الإصباح وجعل الليل سكا والشمس والقمر حسبانا فقدر للقمر منازلنا وجعل الشمس تجري لمستقر لها وكل في فلك يسبحون. لا إله إلا هو وحده لا شريك له إيماننا بروبوئته وتسليما وإقرارا بألوهيته وتصديقا بأسمائه وصفاته على الوجه الذي يحب ويرضى من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل. بعث الرسل بالحق والميزان مبشرين ومنذرين وليبينوا للناس أمور دينهم ودنياهم ومن أجلها إقامة التوحيد بإفراده سبحانه وحده بالعبادة بالطريقة التي ارتضاها وإقامة الميزان بالقسط والعدل بين الناس. ومن رحمته أنه أرسل محمدا ﷺ خاتما للنبيئين وأنزل عليه القرآن هدى وبشرى للمتقين، أما بعد:

هذا كتاب ألفته لشرح علم الحساب في دقه وجليله سالكا بذلك مسلك أهل العلم السببي في فنون ووجوه علم الرياضيات والعلوم الطبيعية كالفيزياء وعلوم الحاسب كعلوم الآلة والذكاء الاصطناعي وما يمكن حسابه مقدما ببيان وتفصيل الأمور الدينية المهمة في العقيدة والتفسير لبيان أهمية الحساب في الحكم الرشيد متبعا في ذلك ما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ وسبيل المؤمنين من

سلف هذه الأمة وعلماءها.

سميت هذا الكتاب: "الحساب الصحيح من بنیان الحكم الرشيد". فالحساب هو وسيلة يحتاجها الناس لغايات عديدة منها ما هو فرض، ومنها ما هو نافع، ومنها ما هو بخلاف ذلك. فالحساب هو مفتاح العلوم الكونية وهو السبيل لفهمها وبه تكشف العديد من حقائق وأسرار هذا الكون. فإن كانت الغاية من هذا الحساب هي منفعة الناس بالعموم في أمور دينهم ودنياهم وإقامة الميزان الشرعي الذي أمر الله به بالوسط والعدل كان هذا الحساب صحيحا وكان من بنیان الحكم الرشيد وكان سببا في الزيادة في الإيمان وإقامة العدل بين الناس وسبيلا للتطور العلمي والحضاري وقوة في دحر الأعداء ونشر الحق ونصرته.

اسئل الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يبارك فيه ويجعله سببا لعودة أمة الإسلام إلى الطريق المستقيم، وأن يجعل دعوتنا دعوة الراشخين في العلم كما في قوله تعالى: **وَالرَّاشِقُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾** رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ آل عمران. اللهم اجعل دعائنا كدعاء نبينا ﷺ كما جاء عن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ كان إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (صحيح مسلم). وكما جاء أيضا عن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ علمها هذا الدعاء: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ مَا عَادَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ

النَّارِ وما قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا (صحيح ابن ماجه وصححه الألباني). وكما جاء عن أم المؤمنين أم سلمة أن أكثر دعاء نبينا ﷺ كان: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وكما جاء عن عبدالله بن عمر أن نبينا ﷺ قلما يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا (صحيح الترمذي). وكما جاء عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال: لا أعلمكم إلا ما كان رسول الله ﷺ يعلمنا: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والبخل والجبن، والحرم وعذاب القبر، اللهم ات نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع وعلم لا ينفع ودعوة لا يستجاب لها (صحيح النسائي). وعن أنس ابن مالك أنه قال: كثيرا ما كنت أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بهؤلاء الكلمات (وفي رواية في صحيح النسائي: لا يدعهن): اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال (صحيح الترمذي، صححه الألباني).

اللهم اعنا على إقامة الحق واجعلنا من المهتدين، واعنا على إقامة الميزان واجعلنا من المقسطين، واهدنا إلى الرشاد واجعلنا من المصلحين، وزدنا علما واجعلنا من المتقين. اللهم اهدنا إلى الإسلام واجعلنا من الذاكرين، واهدنا إلى الإيمان واجعلنا من المخلصين، واهدنا إلى الإحسان واجعلنا من الموقنين. اللهم ربنا نسألك الصلاح والصبر واليقين والهدى والتقى والعفاف والغنى واجعلنا اللهم من الشاكرين والفائزين، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان وجميع المسلمين والمسلمات

والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات فأنت سبحانك أرحم الرحمن. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ملاحظة:

هذا البحث ما هو إلا اجتهاد شخصي للؤلف وقد يحتوي على أخطاء ونقص، فها وافق الحق فمن الله جل جلاله وما خالفه فمن نفسي واستغفر الله وأتوب إليه. يمكن للقارئ الكريم المساهمة بالنقد البناء في تصحيح وتحسين هذا الكتاب بإرسال ملاحظاته ومقترحاته وتعليقاته على البريد الإلكتروني.

الميزان الكوني والميزان الشرعي

1.1 المقدمة

علم الحساب من العلوم التي تدرك بالعقل والفطرة وقد يكون هو العلم الوحيد الذي يكاد لا يختلف عليه البشر بكافة أجناسهم وألوانهم وبالأخص لمن عرف هذا العلم وتمعن فيه صدقا، وذلك لأن الله جل جلاله خلق كل شيء بقدر معلوم ووضع الميزان الكوني فجعل هذا الكون موزونا ومتناسقا سبحانه، ومن فضله ومنه علي الناس أنه أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب بالحق والميزان الشرعي. ومن حكمته أنه سبحانه فطر الناس على فهم الميزانين وجعل لهم كل ما يحتاجونه من عقل وسمع وبصر. فجعل سبحانه آياته الكونية دليلا على الميزان الكوني وآياته الشرعية دليلا على الميزان الشرعي. وأرشد جل جلاله إلى التأمل في آياته الكونية لتعلم العدد والحساب وهذا لحكمته فالعدد والحساب يدرك بالعقل والفطرة ولهذا اكتفى سبحانه بالدلالة عليه. أما الميزان الشرعي فهو لا يدرك بالعقل والفطرة فقط وإنما يدرك بالوحي المنزل من عند الله تبارك وتعالى. والله جل جلاله تكفل بإقامة الميزان الكوني وأرسل الرسل وأنزل الكتب وفرض على الناس إقامة الميزان الشرعي. ولما كان الحساب هو الوسيلة

لمعرفة الحقائق وضبطها والطريق لمعرفة الأسباب وربطها، وجب النظر والبحث فيه وتعلمه من آيات الله الكونية لفهمها لما في ذلك من مصالح دينية ودنيوية كما أرشد سبحانه في كتابه العظيم.

1.2 الغاية من علم الحساب

علم الحساب من الضروريات التي يحتاج إليها الناس في أمور دينهم ودنياهم. فعلم الحساب هو الوسيلة لتحقيق الغاية العظيمة التي أمر الله بها وهي إقامة الميزان والعدل. ولهذا كان البحث في علم الحساب من الأمور التي حث الله تعالى عليها في موضعين في كتابه. قال تعالى: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ۚ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ الإسراء. يقول السعدي رحمه الله في تفسيره: وَلِتَعْلَمُوا بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم. وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا أي: بينا الآيات وصرفناه لتمييز الأشياء ويستبين الحق من الباطل كما قال تعالى: مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ [هـ]. وقال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يونس. يقول السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات: وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القرينة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجود للذهن والقرينة [هـ].

وفي هذا الحث والترغيب في علم الحساب الحكمة البالغة من الله جل جلاله. ومن ذلك أن علم الحساب هو مفتاح جميع العلوم التي يمكن فيها العد والقياس والتي لا يمكن فهمها فهما صحيحا من

دون الحساب الصحيح. فعلم الحساب به يفهم الميزان الكوني من آيات الله الكونية وبه يقام الميزان الشرعي باتباع آيات الله الشرعية. وهذا لأن علم الحساب ما هو إلا صورة من صور الميزان ولكن صورة معنوية وليست حسية، وبه يمكن ضبط المقادير ووزنها وبه تعرف المجاهيل وميزانها بعدة طرق منها ما هو ذهني أو كتابي أو غير ذلك من الطرق الحديثة. ومن الأمثلة لتطبيقات علم الحساب في اتباع آيات الله الشرعية كعلم الموارث والزكاة والبيع والشراء وغيرها من المعاملات التي يحتاج إليها الناس. ومن الأمثلة على تطبيقات علم الحساب في فهم آيات الله الكونية كعرفة حركة الشمس والقمر وغيرها من الظواهر الطبيعية التي خلقها الله لما في ذلك من مصالح دينية مثل التفكير في عظمة الله والزيادة في الإيمان ومصالح دينيوية مثل حساب الوقت والمواسم.

وإن أفضل طريقة لفهم علم الحساب هي التأمل والتفكير في آيات الله الكونية وهي الظواهر الطبيعية التي خلقها الله وجعل لها الميزان الكوني لفهمها وحسابها. فهي المرجع لنا حتى نتحقق من صحة وسلامة الحساب. وهذا النهج هو نهج القرآن وهو أفضل الطرق وأحسنها. ويمكن أيضا دراسة علم الحساب مجردا من أي تطبيقات وهذا نهج معروف. ولكن الجمع بين العلوم الطبيعية كعلم الفيزياء والحساب لمحاولة محاكاة الظواهر الطبيعية هي الطريق الأمثل لتطوير علم الحساب وهذا معروف لأهل هذا العلم. وبهذا يكون الميزان الكوني طريقا لتعلم الحساب الصحيح ومن ثم يكون الحساب الصحيح وسيلة لإقامة الميزان الشرعي الذي أمر الله به.

1.3 الميزان الكوني

جعل الله جل جلاله الميزان في آياته الكونية لحكمته وعدله سبحانه ومن ذلك أنه جعل قيام الكون كله بالقسط أي بالعدل الظاهر.¹ فالميزان الكوني أمره عظيم لأن الله جل جلاله شهد به لنفسه ووصف نفسه به وفيه شأن الله وتديره لهذا الكون، فعن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ، عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ (صحيح البخاري). وهذا فيه أن الميزان الكوني بيده سبحانه فهو قائم عليه بالقسط لا تأخذه في ذلك سنة ولا نوم، ولهذا كانت آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله فقد قال سبحانه: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ (البقرة). وعن أبي موسى قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَحَسٍّ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ. (رواه مسلم وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله قائم على الميزان الكوني بنفسه بالعدل الظاهر ولذلك وصفه الله جل جلاله ورسوله ﷺ بالقسط.

ومن أعظم ذلك أن الله جعل قيامه على الميزان الكوني بالقسط في أعظم شهادة في كتابه الكريم فقال جل في علاه: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: قائماً بالقسط أي: متكلاً بالعدل مخبراً به أمراً به: كان هذا تحقيقاً لكون الشهادة شهادة عدل وقسط وهي أعدل من كل شهادة كما أن الشرك أظلم من كل ظلم وهذه الشهادة أعظم الشهادات [٥] وقيامه بالقسط يتضمن أنه يقول الصدق ويعمل

¹ جاء في معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري أن القسط هو العدل بين الظاهر ومنه سمي الميزان قسطاً والميزان قسطاً لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهراً وقد يكون من العدل ما يخفى.

بالعدل كما قال: (وَمَتَّ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال هود: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه [٥]. وقال: (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وهو مثل ضربه الله لنفسه ولما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله: (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ) الآية. وقال: (أَفَنُ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) الآيات [٥]. ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم عليهم: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وصراطهم هو العدل والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل. والله سبحانه أعلم (مجموع الفتاوى 14/176).

وجاء في تفسير القرطبي عن الكلبى وأورده أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية في سبب نزول هذه الآية أنه لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والتعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم. قالوا: وأنت أحمد؟ قال: نعم. قالوا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ: سلاني. فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران، فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ [هـ].

ولا يعلم على وجه التحديد متى خلق الله جل جلاله هذا الميزان الكوني ولكن يعلم بالضرورة أن هذا الميزان الكوني كان موجودا عندما رفع الله السموات حيث وضعه جل جلاله في يده. وكل ذلك كان بعد خلق القلم واللوح والعرش والماء، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ

القلم، فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. ومن مات على غير هذا فليس مني (صحيح أبي داود وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله خلق القلم أولاً ثم خلق اللوح المحفوظ وأمر جل جلاله القلم أن يكتب على اللوح المحفوظ المقادير كلها إلى قيام الساعة. وكل هذا كان قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه جل جلاله على الماء كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ (صحيح مسلم). وسماها الله جل جلاله المقادير لأنه قدرها وعرف قدرها بعلمه وحكمته وعدله ورحمته سبحانه حتى يقوم بنفسه على ذلك في الميزان الكوني الذي وضعه سبحانه في يده بعد رفع السماء كما في قوله تعالى: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ الرحمن. فيكون المعنى هنا الميزان الذي وضعه الله في يده بعد رفع السموات وهو الميزان الكوني ويحتل أيضاً الميزان الذي وضعه للمكلفين من خلقه من الإنس والجن وهو الميزان الشرعي كما في باقي الآيات الكريمة في قوله تعالى: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ الرحمن.

وكل هذا فيه أن الله جل جلاله قد جعل الميزان الكوني سبباً لإستقامة السموات والأرض وصلاهما كما في قوله تعالى: وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ المؤمنون. يقول السعدي في تفسيره: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل [هـ]. وبهذا يعلم أن السموات والأرض تفسد بالظلم وهذا لا يكون لأن الله أقامهما بالميزان الكوني أي بالعدل. ولا يعلم صورة هذا الميزان ولا وصفه إلا بما وصفه الله جل جلاله ورسوله ﷺ ومن ذلك أن الله وضعه في يده ويخفض به ويرفع وهو قائم عليه بنفسه كما

قال الرسول ﷺ: ما من قلبٍ إلا وهو معلقٌ بينَ إصبعينَ منَ أصابعِ الرحمنِ، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه، و الميزانُ بيدَ الرحمنَ، يرفعُ أقواماً، ويخفضُ آخرينَ، إلى يومِ القيامةِ (صحيح، الجامع الصغير). وهذا فيه أن هذا الميزان هو الميزان الكوني التابع لإرادة الله الكونية وأن الله قائم عليه بالقسط إلى قيام الساعة وهو غير الميزان الشرعي التابع لإرادة الله الشرعية الذي يوضع يوم الحساب كما سيأتي بيانه. فالميزان الكوني فيه شأن الله وتديره لهذا الكون الذي قال فيه جل في علاه: يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ الرحمن. وبهذا يكون الميزان الكون فيه شأن الله وتديره للكون كما قال تعالى: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ الرحمن. والميزان الشرعي فيه شأن العباد وتديرهم لأنفسهم كما قال تعالى: أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ الرحمن.

والميزان الكوني قد تكفل به سبحانه عدلا وتديرا وهو دليل على عظمته وقدرته إذ يتعذر على غيره العيش من دونه فضلا عن إقامته، ومن ذلك أن الله عدل في قضاءه ومشيتته وحليم في تديره والدليل على هذا قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ فاطر. فهذا دليل على وحدانيته سبحانه بالملك والتدير، فالأدلة العقلية والشرعية دلت على وحدانيته سبحانه ومن ذلك أنه جعل هذا الكون موزونا ومتناسقا بإرادته الكونية لا يشاركه في ذلك أحد كما في قوله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ الأنبياء. وقد جاء في تفسير السعدي في شرح هذه الآيات أن العالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك، على أن مدبره واحد، وربّه واحد، وإله واحد، فلو كان له مديران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا

أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ المؤمنون [هـ].

1.4 الميزان الشرعي

ومن حكمته سبحانه وتعالى أنه تكفل بإقامة الميزان الكوني وفرض على المكلفين من الجن والإنس إقامة الميزان الشرعي كما في قوله: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ الرحمن. وقد جاء في تفسير السعدي أن معنى ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم [هـ]. وهذا بالتأكيد يشمل الحساب والذي به تحسب المقادير وتضبط المجهولات فهو أيضاً صورة من صور الميزان. وكل هذا فيه أن الله عز وجل فرض على المكلفين من الإنس والجن إقامة الميزان الشرعي. وفيه أيضاً أن الله عز وجل جعل العدل في آياته الشرعية كما في آياته الكونية وهذا دليل على حكمته وعدله وكأله سبحانه.

إن المقصود والمراد من إقامة الميزان بالمجمل هي إقامة الميزان الشرعي وهو العدل في جميع الأقوال

والأفعال وهذا يشمل العبادات التي يحبها الله ويرضاها والتي أمر الله عباده بها عن طريق الرسل والكتب ومن ذلك إقامة الميزان والكيل بالقسط والصدق في القول والعمل ومنه بلا شك الحساب الصحيح. وبهذا يتبين أن الميزان الشرعي، حاله كحال الحق، هو من الأمانة في قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ الأحزاب. وفي تفسير ابن كثير: قال العوفي عن ابن عباس يعني بالأمانة الطاعة [٥]. وقال قتادة الأمانة الدين والفرائض والحدود [هـ].

الميزان الشرعي هو أيضا من الميثاق الذي ذكره الله في قوله: وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ المائدة. يقول السعدي في تفسيره رحمه الله: وَمِيثَاقُهُ أَي: واذكروا ميثاقه الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ أَي: عهده الذي أخذه عليكم. وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما، ولهذا قال: إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا أَي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أُمرُوا به كاملا غير ناقص. وَاتَّقُوا اللَّهَ في جميع أحوالكم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَي: بما تتطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم -إن كنتم كذلك- غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم [هـ].

ولهذا فإن الميزان الشرعي يعتبر من الأمانة والميثاق الذي واثق الله به المؤمنين وأمرهم به ليجزى كل نفس بما كسبت. وبهذا يتبين أن الميزان المخلوق الذي يوضع بعد الصراط يوم القيامة إنما هو

الميزان الشرعي وهذا من عدل الله إذ جعل الميزان الذي يوزن به الناس يوم القيامة هو الميزان الشرعي الذي كلفهم به. وقد صح عن الرسول ﷺ أن هذا الميزان يوضع في صورة مخلوق بعد الصراط فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: أَنَا فَاعِلٌ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ، قَالَ: اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبْنِي عَلَى الصِّرَاطِ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصِّرَاطِ، قَالَ: فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ، قَالَ: فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْحَوْضِ فَإِنِّي لَا أَخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ الْمَوَاطِنَ (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وهذا فيه أن الميزان الشرعي يوضع في صورته بعد الصراط مباشرة وقبل الحوض. وقد صح عن أحد أصحاب النبي ﷺ أنهم رأى هذا الميزان الشرعي في منامه كما جاء عن النبي ﷺ أنه ذات يوم قال لأصحابه: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيزَانًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُزِنْتُ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ فَرَجَحْتَ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَحَ عُمَرُ، ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ. فَأَرَيْنَا الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني). وهذا فيه بيان الميزان الشرعي الذي ربح بحسب من فضل الله به النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

والأدلة في وصف الميزان الشرعي ووصف حال المكلفين وأعمالهم وهم يوزنون عليه كثيرة ومنها قوله تعالى: وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْهَرُونَ ﴿٩﴾ الْأَعْرَافُ. وقال تعالى: أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ الْكَهْف. وقال تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۚ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۖ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ الْأَنْبِيَاءُ. وقال تعالى: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ الْمُؤْمِنُونَ.

وقال تعالى: فَأَمَّا مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ القارعة. فكل ذلك فيه وصف حال وأحوال الناس وأعمالهم على هذا الميزان الشرعي الذي كلف جل جلاله المكلفين به من الجن والإنس فنسأل الله العفو والعافية. اللهم فاعف عنا وارحمنا وتجاوز عن سيئاتنا. اللهم ارحمنا فأنت ارحم الراحمين.

ولهذا فإن هذا الميزان الشرعي موافق لما شرعه الله تعالى وقد وصف النبي ﷺ وزن الأعمال الصالحة في هذا الميزان الشرعي ومن ذلك قوله: ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة (صحيح الترمذي، وصححه الألباني). وفي رواية أخرى عن أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال: من أعطي حظه من الرِّقِّ فقد أُعطيَ حظه من الخير ومن حُرِّمَ حظه من الرِّقِّ ؛ فقد حُرِّمَ حظه من الخير. أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن الخلق، وإن الله ليعغض الفاحش البذيء (صحيح الأدب المفرد، وصححه الألباني). وقال ﷺ أيضا: كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ (صحيح البخاري، وصححه الألباني). وقال أيضا: الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (صحيح مسلم). وقد جاء أيضا أن النبي ﷺ قال: يَخْجُجُ - وأشار بيده بـجَّس - ما أثقلهن في الميزان سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يَتَوَقَّى لِلرَّءِ الْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ (صحيح ابن حبان، والسلسلة الصحيحة للألباني). وقد جاء أيضا أن النبي ﷺ أمر عبد الله بن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه منها بشيء، فظفر أصحابه إلى ساق عبد الله فضحكوا من حموشة ساقه، فقال رسول الله ﷺ: مِمَّا تَضْحَكُونَ! لَرَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ (السلسلة الصحيحة للألباني). وقال أيضا ﷺ: لو أَنَّ عِلْمَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَضِعَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوُضِعَ عِلْمُ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي كِفَّةٍ، لَرَجَحَ عِلْمُ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (صححه الألباني). والمراد

هنا علم عمر الشرعي وهذا فيه فضل عمر رضي الله عنه فقد بشره بذلك النبي ﷺ فقال: بينا أنا نائمٌ أُتيتُ بقَدَحٍ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ مِنْهُ، ثُمَّ أُعْطِيتُ فَضْلِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْعِلْمُ (صحيح البخاري). أي العلم الشرعي ورؤييا الأنبياء حق. فكل ذلك فيه أن المراد في كل هذه الأحاديث هو الميزان الشرعي والذي يوافق أمر الله الشرعي لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال وهو بخلاف الميزان الكوني الذي جعله الله بيده لتدبير الكون كما تقدم.

ومن رحمة الله جل جلاله ومنه على المكلفين أنه جعل وزن الأعمال الصالحة في الميزان الشرعي تتضاعف وأقل ذلك عشرة أضعاف كما في قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ الأنعام. ويزيد سبحانه وتعالى في فضله على عباده كيف يشاء فيضاعف الحسنات أضعافاً كثيرة كما في قوله: مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ^ج وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ البقرة. وعن عبد الله بن عباس عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً. وفي رواية: وزاد: ومحأها اللَّهُ وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ (صحيح مسلم). ولكن الله جل جلاله وضع شرط لهذا الفضل العظيم وهو أن يلتقي العبد ربه وهو لا يشرك به شيئاً ولهذا فقد جاء عن أبو ذر الغفاري أن النبي ﷺ قال: يقولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً، فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا. وَأَزِيدُ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فُجِرَ أَوْهَا مِثْلُهَا، أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً، ثُمَّ لَقِيَنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَى شِبْرًا، اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَى ذِرَاعًا، اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمِينِي، أَتَيْتُهُ هَرُولَةً

(صحيح الجامع، وصححه الألباني).

ومن واسع فضل الله جل جلاله أنه جعل الحسنات في الميزان الشرعي تذهب السيئات وتبدلها فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنََّّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ هود فقال الرجلُ: يا رسولَ الله ألي هذا؟ قال: لجميع أمتي كلهم (صحيح البخاري). ولقد بين النبي ﷺ حساب العشرة الأضعاف من الحسنات خلال اليوم واللييلة في الذكر وأنها تغلب السيئات فقال: خَصَلْتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَلَا وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ، يُسَبِّحِ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا (10)، وَيُحَمِّدُهُ عَشْرًا (10)، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا (10)، فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةً بِاللِّسَانِ $(5 \times 30 = 150)$ أي في الصلوات الخمس)، وَالْفُؤُفُ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ $(10 \times 150 = 1500)$ أي عشرة أضعافها). وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ (34)، وَيُحَمِّدُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ (33)، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ (33)، فَتِلْكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ $(33 + 33 + 34 = 100)$ ، وَالْفُؤُفُ فِي الْمِيزَانِ $(10 \times 100 = 1000)$ أي عشرة أضعافها)، فَأَيْكُم يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسُمِائَةِ سِنِيَّةٍ $(1000 + 1500 = 2500)$ أي عدد الحسنات الكلي (صحيح الجامع، وصححه الألباني).

1.5 الإرادة الكونية والإرادة الشرعية

قرر أهل العلم الشرعي من أهل السنة والجماعة في هذا الباب العظيم وبناء على الأدلة والبراهين الواضحة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما يوافق العقل والنقل، أن الله جل جلاله له أراءتان وهما الإرادة

الكونية والإرادة الشرعية. فالإرادة الكونية هي ما تعلق بمشيئته سبحانه والإرادة الشرعية هي ما تعلق بحبته ورضاه. فإرادة الله الكونية نافذة كما في قوله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ يس. وأما الإرادة الشرعية فهي إرادة بيان لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال كما في قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ^ج وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ النساء.

ولما كان الله عز وجل فعال لما يريد كما في قوله تعالى: فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ النحل، كان قضاءه تابعا لإرادته أي سبحانه له كذلك قضاء كوني وقضاء شرعي. فالتقضاء الكوني هو ما أَرَادَهُ اللهُ كونا فشاء أن يكون فكان بعزته وعلمه وقدرته سبحانه كما في قوله تعالى في هذه الآيات: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ^ط وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ البقرة. وأما قضاءه الشرعي فهو ما أَرَادَهُ اللهُ شرعا فأمر الله عباده به مثل قوله تعالى: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^ج إِمَّا يَلِغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ الإسراء. فلو كان هذا قضاء كونيا لكان الناس أمة واحدة على التوحيد ولكن الله نفى ذلك بقضاءه الكوني أي بمشيئته الكونية كما في قوله تعالى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^ج وَلِتَسَّالُنَ^ج عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ النحل. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ^ط وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ الأحزاب. فهذا أيضا من القضاء الشرعي ووجه ذلك أنه سبحانه ألزمهم بإتباع أمره الشرعي لأن ذلك من مقتضيات الإيمان ولهذا جاء التحذير في نهاية الآية لمن خالف وعصى أمر الله ورسوله، فلو كان هذا قضاء كونيا لكان ما أَرَادَهُ اللهُ ولم يسع لأحد أن يختار شيئا من ذلك

حيث أن أمر الله الكوني نافذ لا محالة.

وكذلك حكم الله تابعاً لإرادته وله سبحانه الحكم الكوني وهو تابع لأرادته الكونية والحكم الشرعي وهو تابع لإرادته الشرعية كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبَيِّلُ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصِّدِّ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ المائدة، وهذا في الحكم الشرعي كما دل سياق الآية. وقوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ الرد. ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري (أي الكوني) والجزائي كما جاء في تفسير السعدي رحمه الله.

فحكم الله وقضاه وأمره الكوني نافذ وماض بإرادته الكونية وبما شاء وهو عدل في ذلك لا يشاركه فيه غيره سبحانه كما قال تعالى: وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ غافر. وقد جاء في تفسير ابن كثير أن قوله: (والله يقضي بالحق) أي: يحكم بالعدل، وقوله: (والذين يدعون من دونه) أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، (لا يقضون بشيء) أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء [هـ]. وكما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ماضي في حكمك، عدل في قضاؤك» (أخرجه أحمد وصححه الألباني).

وفي كل ذلك فإن الله هو أحكم الحاكمين كما في قوله تعالى: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ التين. وهو أيضاً خير الحاكمين كما في قوله: وَاتَّبِعْ مَا يوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ يونس. فالحكم كله لله تعالى ومنه الحكم الجزائي وهو سبحانه خير الفاصلين كما في قوله تعالى: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ الأنعام. وذلك لأن الله عز وجل عدل في إرادته وحكمه وقضاه العدل التام المنافي للظلم والدليل قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ آل عمران. ومن ذلك أن الله عدل في جزاءه وثوابه كما أخبر هو

بذلك في قوله تعالى: وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ الحاقة. وقوله تعالى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ يونس.

وقد ثبت في السنة أن الله عز وجل حرم الظلم على نفسه في حكمه الكوني وعلى عباده في حكمه الشرعي فعن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْصِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِيسَكُمْ وَجَنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِيسَكُمْ وَجَنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَجْرٍ قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِيسَكُمْ وَجَنَّتُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَن وَجَدَ خَيْرًا فَيُحْمَدُ اللَّهُ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلَومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ. وفي رواية: إِنِّي حَرَمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي، فَلَا تَظَالُمُوا. (صحيح مسلم).

وهذا فيه أن الله جل جلاله لم يحرم الظلم على عباده كونا بل حرمه شرعا وهذا من حكمته سبحانه فقد بين حكمه الشرعي للمكلفين حتى يغفر لمن يشاء برحمته ويعذب من يشاء بعدله في حكمه الجزائي كما في قوله تعالى: وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ

غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ الفتح. وقد جاء في تفسير السعدي أن معنى ذلك أن الله تعالى هو المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعيّة، والأحكام الجزائيّة، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعيّة، فقال: يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وهو من قام بما أمره الله به وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ممن تهاون بأمر الله، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار، آناء الليل والنهار [هـ]. فهذا الحكم الجزائي مرتبط بعدل الله وهدايته فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام والطاعة ويعذب من يشاء بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذب على ذلك كما جاء بيان ذلك في تفسير السعدي رحمه الله.

1.6 الهداية الكونية والهداية الشرعية

وكما أن الله عز وجل له إرادتان الكونية والشرعية فإن له سبحانه أيضا هدايتان وهما الهداية الكونية وهي هداية التوفيق والإنقياد والهداية الشرعية وهي هداية المعرفة والإرشاد. واجتمعت الهدايتان في قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ الشورى. ووجه ذلك أن الله عز وجل يهدي من يشاء ومن يريد فهذه الهداية المرتبطة بمشيئته وإرادته سبحانه هي الهداية الكونية وقد وردت في عدة مواضع في القرآن منها قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ القصص. وفي قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ

يِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ الحج. وأما الهداية الأخرى في قوله تعالى: (وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فهي المرتبطة بمعرفة الحق وهي الهداية الشرعية وقد وردت أيضا في عدة مواضع في القرآن منها قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتَوَبَّ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ النساء. وهذه الهداية تكون مرتبطة بالوحي وهي هداية بيان للحق كما في قوله تعالى: وَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ الأنعام.

وبهذا يتبين أن كل المخلوقات مسيرين بإرادة الله الكونية وأن المكلفين منهم من الجن والإنس مخيرين بإرادة الله الشرعية. والهداية الكونية الراجعة إلى مشيئة الله هي الغالبة، فمن عرف الحق وعمل به فقد هدى شرعا وكونا أي اجتمعت فيه الهدايتان ومثال ذلك أصحاب النبي ﷺ. والناس في كل ذلك درجات برحمة الله وكرمه وبما فضل الله بعضهم على بعض، ومن عرف الحق ولم يعمل به فقد هدى شرعا ولم يهدى كونا أي لم تجتمع فيه الهدايتان ومثال ذلك ابليس لعنه الله. والناس في ذلك دركات بعدل الله وغضبه وبما أغوى الله بعضهم على بعض. وسيأتي تفصيل ذلك في بيان يوم الحساب الذي فيه يكون الحساب بوزن الأعمال وبعده يأتي الجزاء إما جنة أو نار.

ولقد الله عز وجل جعل لهداياته الكونية مسببات منها الإنابة إليه كما في قوله تعالى: اللَّهُ يَحْتَسِبُ إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ الشورى. وقوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الرعد. ومن ذلك أيضا الإيمان بالله والأعتصام به كما في قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ النساء. ومن ذلك أيضا إتباع أمر الله الشرعي الذي يحبه الله ورضاه كما في قوله تعالى: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ المائدة. وهذا كله من عدل الله ورحمته سبحانه. ومن

أسباب الهداية والثبات الدعاء فإن أكثر دعاء نبينا ﷺ كان في ثبات القلب كما جاء عن أم سلمة أن أكثرُ دعائه كان: يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبي على دينِكَ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يا رسولَ اللَّهِ ما أكثرُ دعائك يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبي على دينِكَ؟ قَالَ: يا أُمَّ سلمة إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ فَنَلَا مَعَاذَ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله جل جلاله يقلب القلوب بين أصابعه بإرادته الكونية وأن الدعاء قد يكون سببا للهداية الكونية والتي بها يكون الثبات على الدين والطاعة.

ومن أعظم أسباب الهداية هي الجهاد في سبيل الله كما في قوله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ العنكبوت. وقد جاء في تفسير السعدي قوله: دل هذا، على أن أخرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعلم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين [هـ].

1.7 الميزان بمعنى العدل والميزان المخلوق

العدل مرادف للميزان، والعدل هو صفة من صفات الله جل جلاله والله عدل في إرادته الكونية والشرعية، فالميزان الكوني تابعا لإرادة الله الكونية والميزان الشرعي تابعا لإرادة الله الشرعية. وكل

هذا على وجه الإجمال. وأما على وجه التفصيل، فالميزان الكوني هو العدل في إرادة الله الكونية والميزان الشرعي هو العدل في إرادة الله الشرعية.

ولكن الله عز وجل جعل الميزانين كل منهما في صورة مخلوق لحكمته ولإظهار عدله سبحانه، فخلق سبحانه الميزان الكوني ووضعه بيده والذي فيه تدبيره للكون وهو قائماً عليه بالقسط كما في قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران. ويخلق سبحانه الميزان الشرعي يوم القيامة ويضعه لحساب المكلفين وأعمالهم كما في قوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ الأنبياء.

وبهذا يعلم بالضرورة أن الميزان الكوني المخلوق الذي يضعه الله جل جلاله في يده كما صح ذلك عن النبي ﷺ فيه شأن الله وتدبيره لهذا الكون بما في ذلك السماوات والأرض، ومن ذلك قوله تعالى: يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ الرحمن. وأما الميزان الشرعي المخلوق الذي يوضع بعد الصراط وقبل الحوض كما صح ذلك عن النبي ﷺ فيه شأن حساب المكلفين وأعمالهم يوم القيامة، فلزم بذلك أن يكون الميزان الكوني المخلوق أعظم من الميزان الشرعي المخلوق، وكل منهما من عدل الله ورحمته. وهذا لأن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الناس كما في قوله تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ غافر. فكل هذا فيه أن شؤون الخلق ومن ذلك البعث والحساب أهون على الله جل جلاله من أمر السموات والأرض كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ الروم. وقال السعدي في بيان معنى (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ): وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول.

وهذا فيه بيان أن التفاوت هنا في قوله (وهو أهون عليه) ليس في ذات الله وقدرته فهو سبحانه على كل شيء قدير ولا يعجزه شيء ولكن هذا التفاوت إنما هو لبيان المحجة العقلية حيث أن من خلق الإنسان وخلق السموات والأرض وهي أكبر وأعظم، قادر على إحياء الموتي من باب أولى. فتكون المحجة العقلية هنا أن من لم يعجزه الإبتداء لا تعجزه الإعادة وخصوصا لما هو أسهل فهذا أهون. وقد جاء في تفسير ابن كثير وتفسير الطبري: عن ابن عباس قوله: (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) يقول: كل شيء عليه هين [هـ]. وقد جاء في تفسير القرطبي: فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما يخفى من إعادته؛ استدلالا بالشاهد على الغائب [و]، قال أبو عبيدة: ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقلوه مردود بقوله تعالى: وكان ذلك على الله يسيرا، ويقولوه: ولا يتوذه حفظهما. والعرب تحمل أفعّل على فاعل، [و] وأنشد أبو عبيدة أيضا: إني لأمنحك الصدود وإنني قسما إليك مع الصدود لأميل (أراد المائل) [و]، ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده [هـ]. وهذا فيه أن الله جل جلاله يخاطب عباده بما يناسب فهمهم وعقولهم وهذا من عدله ورحمته جل جلاله.

1.8 الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته

من المعلوم بالضرورة وما دلت عليه البراهين الشرعية والعقلية أن الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته حتى يصلح للحياة ومن ذلك أن الله عز وجل جعل الأرض مستقرة وثابتة ومبسوطة والجبال أوتادا والسماء مرفوعة والسحاب والرياح مسخرة والفلك والأنهار جارية والبحار محسورة والشمس سراجا والقمر نورا والنهار معاشا والليل سكا والنجوم دليلا والشجار مثمرة والدواب متحركة وسائر المخلوقات المتنوعة وغيرها من الآيات العظيمة الدالة عليه والمرشدة إليه. فكل ذلك

من آيات الله الكونية الدالة على عظمته وحكمته سبحانه والتي أراد الله منها إيرادته الكونية أن نراها وإيراده الشرعية أن نتدبر فيها ونتمتع في تفاصيلها بما أودع فينا من عقل وفطرة. وقد قال تعالى في ذلك: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرُكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ النمل. وقوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ فصلت.

والآيات في ذلك عديدة ومنها قوله تعالى: أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ الأنبياء. وقوله تعالى: وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ يس. وقوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ البقرة. وقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وهو الذي أنشأكم من نفسٍ

وَاحِدَةٍ فُمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ الأنعام.

وكل هذا فيه الحجة البالغة العقلية والشرعية على استحقاق الله جل جلاله للعبادة وحده لا شريك له بالطريقة التي ارتضاها ومن ذلك وجوب تسبيحه وتقديسه بأسمائه وصفاته بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل إذ قال جل جلاله: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ لِّجَعَلُهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ الأعلى. وجاء في تفسير السعدي في بيان معنى هذه الآيات أنه تعالى يأمر بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحا، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسمائه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم. الذي خلق فسوى أي: أتمتها وأحسن خلقها وَالَّذِي قَدَّرَ تَقْدِيرًا، تتبعه جميع المقدرات فَهَدَى إِلَى ذَلِكَ جميع المخلوقات. وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها: وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى أي: أنزل من السماء ماء فأنبث به أنواع النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان، ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته، وصوح عشبه. لِّجَعَلُهُ غَنَاءً أَحْوَى أي: أسود أي: جعله هشيماً رميمًا، ويذكر فيها نعمه الدنيوية [هـ]. فتبارك الله أحسن الخالقين.

فلولا ثبات الكون واستقراره وبركته لما صلح للحياة ولما كانت الحياة ممكنة ومستقرة ومنتظمة ومنتجة. ولهذا فإن الإنسان يعيش في هذا الكون ويستفيد منه ومن ثماره ونعمه وبركاته وموارده ومعادنه وغيرها من الأشياء التي جعلها الله في هذا الكون ليستفيد منها بفضله ورحمته ومنه علينا. وفي

ثبات الكون وإستقراره غايات عظيمة ومصالح كثيرة ومنها تعلم العدد والحساب كما في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يونس.

فكل هذه الآيات واضحة في دلالتها على عظمة الخالق وحكمته وعدله ورحمته. ولهذا فقد ذكر الله عز وجل أن آياته لقوم يعقلون، يعلمون، يفقهون، يؤمنون، يوقنون، أو يتفكرون، وهم أولي الألباب الصادقين حقا مع أنفسهم ومع خالقهم بما أودعه فيهم من هداية وبصيرة بفضلهم ومنه عليهم. وهم الذين آمنوا بالله حقا على يقين ولم يرتابوا وجاهدوا في الله لنصرة الحق كما في قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ الحجرات. ولهذا ما ينكر هذه الآيات الواضحة إلا المعاندين لها والكافرين بها والمشككين فيها والمعرضين عنها وعن خالقهم كفرا وعدوانا وظلما. ولهذا فقد ساهم الله جل جلاله العمي وحجب عنهم الهداية الكونية ونفى عنهم اليقين بعدله سبحانه فقال لنبيه: وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ^ط إِن تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ النمل. وهم الذين يجادلون في آيات الله بالباطل فطبع الله على قلوبهم كما في قوله تعالى: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ^ط كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ غافر. وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ^ط إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ غافر. فهم تكبروا عن قبول الحق لكفرهم كما قال تعالى: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ غافر.

1.9 الظلم ينافي الميزان الكوني والميزان الشرعي

ومن عدله وحكمته سبحانه أنه جعل الظلم منافيا ومخالفا للميزان الشرعي كما جعله سبحانه منافيا للميزان الكوني. فهذا فيه أن الكون محفوظ بإمر الله الكوني وبعده ولكن هذا الحفظ والاستقرار إنما جعله الله برهانا واضحاً على ربوبيته وألوهيته حتى يقيم المكلفين الحق والميزان الشرعي، ولهذا فإن الله جل جلاله جعل الظلم من أسباب البلاء الذي يقع بإذنه إما لحكمته أو عدله أو رحمته. ويقع هذا البلاء في صور مختلفة منها الجوع والخوف وقلة المطر والزلازل وذهاب البركة وغير ذلك. ومن أعظم الظلم الكفر بالله كالشرك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ١٣ لقمان. أو دعوة الولد له سبحانه والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ٨٨ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ٨٩ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ٩٠ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ٩١ مريم. يقول السعدي رحمه الله: أي من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون منها ما ذكر. والحال أنه: مَا يَنْبَغِي أَيُّ: لا يليق ولا يكون لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا وذلك لأن اتخاذه الولد، يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد. والولد أيضاً، من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي [هـ].

وهذا فيه أن الشرك ونسبة الولد لله سبحانه هو من الظلم الذي لا ينافي فقط الميزان الشرعي الذي أمر الله به، وإنما ينافي أيضاً الميزان الكوني فيكاد يحصل الإضراب الذي به يكون خراب هذا الكون. ولهذا فإن دعوة الولد أو صاحبة الله جل جلاله من شتم الله والإشراك به سبحانه ولهذا فقد نزه سبحانه نفسه عن ذلك كله في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ١٠٠ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ الْيَوْمَ بِأَلَدٍ لَّهِ وَلَمْ تَكُنْ

لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ مريم. وقد صحح عن عبد الله بن عباس وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن الله قال: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَعَمَ إِيَّيَ لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْنُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا. وفي رواية أخرى: أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْنُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ (صحيح البخاري).

ومما ينافي عدل الله الكوني والشرعي أيضا اتباع الهوى بدلا من إقامة الحق ونصرتة كما في قوله تعالى: وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ المؤمنون. يقول السعدي في تفسيره: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل [هـ].

ومن ذلك أيضا نقصان البركة بسبب المعاصي كما في قوله تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ الروم. فقد ورد في تفسير القرطبي أن ابن عباس قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا [هـ]. وجاء في تفسير ابن كثير أن زيد بن رفيع قال: (ظهر الفساد) يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه [هـ].

ومن ذلك أيضا الكفر بأنعم الله كما في قوله تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً

يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ النحل. وقوله تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ القصص. وجاء في تفسير ابن كثير معنى ذلك أي: طغت وأشرت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق [هـ]. وسيأتي توضيح أسباب هذا العذاب في بيان حال الأمم مع الحق والميزان.

1.10 المراد بالعلم والميزان

إن المراد بالعلم عموماً هو المعرفة وله أقسام وأنواع ويمكن تقسيمه إلى قسمين وهما: العلم الكوني والعلم الشرعي. فالعلم الكوني ينقسم إلى علم ظاهر وهو العلم السببي وعلم غير ظاهر وهو العلم الغيبي. وأما العلم الشرعي فهو ما قام عليه الدليل كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وينقسم إلى علم فطري وعلم ديني.

وأما الميزان فالمراد به العدل وهو العمل بعد المعرفة وأقسام الميزان كأقسام العلم، ويمكن تقسيمه إلى ميزان كوني وميزان شرعي. فالميزان الكوني ينقسم إلى الميزان السببي والميزان الغيبي. وأما الميزان الشرعي فهو ينقسم إلى الميزان الفطري والميزان الديني. والميزان الشرعي تابع للعلم الشرعي وهو ما قام عليه الدليل. والميزان الكوني وضعه الله جل جلاله في يده على صورة مخلوق لتدبير الكون، والميزان الشرعي يضعه جل جلاله بعد الصراط في صورة مخلوق لحساب المكلفين من الجن والإنس. والله قائم على الميزان الكوني بالتقسط وسيقوم على الميزان الشرعي لحساب المكلفين يوم الحساب بالتقسط، وهذا لحكمته سبحانه ومن ذلك ليكون عدله ظاهراً في الميزان الكوني والميزان الشرعي.

وعلى ما تقدم، فإن كان المراد المعرفة قيل العلم وإن كان المراد العمل بعد المعرفة قيل الميزان. وفيما يأتي بيان أقسام العلم والميزان واقتصرت التسمية على الميزان فقط لتشمل العمل والمعرفة معا. ولكن نفس التقسيم والشرح ينطبق على العلم أيضا.

1.11 أقسام الميزان الكوني

1.11.1 الميزان السببي

فالقسم الأول هو الميزان السببي أو العلم السببي وهو علم ظاهر يدرك بالعقل والفطرة وما منَّ الله به على خلقه من حواس كالبصر والسمع والإحساس. فهذا الميزان فيه حقيقة الأشياء ومسمياتها وطريق الوصول إليها ومسبباتها. ومنه ما هو نافع كالعلم بالحديد وأسبابه ومنه ما هو غير نافع كالسحر. والمخلوقات تتفاوت في المعرفة بهذا الميزان كل بحسب حاله ومقامه ولكن الله جل جلاله أختص الإنسان وفضله على سائر الخلق بأن جعل له عقلا يدرك به من الأسباب ما لا يمكن لغيره من المخلوقات. وهذا لأن الله جل جلاله أراد بحكمته أن يجعله خليفة في الأرض فخلق على صورته وجعل له من العقل والذكاء ما لم يعطي غيره. وهذا ما فضل به آدم على الملائكة وهو تفضيل في المعرفة السببية فأمرهم بالسجود له سجود التحية والإحترام وليظهر فضله على سائر الخلق وهذا لحكمته سبحانه وعلمه كما في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ

فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ البقرة.

فأما الملائكة فاعترفوا بهذا الفضل وبأنهم لا علم لهم إلا ما علمه الله لهم ولكن هذا النقص في العلم السببي لم يمنعهم من الطاعة والإنقياد لأمر الله جل جلاله. وأما إبليس فقد حسد آدم في الصورة التي خلق بها وعلى ما منَّ الله به عليه من العلم والقدرة المعرفية التي استحق بها هذا الثناء والتقدير. ولهذا فما كان للشيطان إلا أن يقول مستكبرا أنه خيرا منه خلق من نار وآدم من طين حسدا منه وكفرا. وهذا فيه جهل إبليس حيث أنه نسب الفضل لمجرد نوع مادة الخلق والقوة الطبيعية لا للعلم والقدرة المعرفية التي منَّ الله بها على آدم عليه السلام. فما كان له إلا أن يسعى لإضلاله وإخراجه من الجنة حسدا منه على هذه الفضائل ولو كان ذلك على حساب هلاكه وسوء مثاله. وهذا أيضا فيه نقص العقل وسوء الفكر نسأل الله السلامة والعافية. ولم يكتفي بذلك بل أخذ العهد على نفسه لإغواء وإضلال كل ذرية بني آدم كما حذرنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.

وبالمعرفة بهذا الميزان السببي لا زالت تتقدم الحضارات الإنسانية وتطور في الأخذ بالأسباب لإنجاز ما لم يكن ممكنا لما سبق من الأمم من التكنولوجيا وشتى العلوم كالفيزياء والكيمياء والطب، والذكاء الاصطناعي وغيرها من العلوم الأخرى التي بها يمكن تحصيل المصالح الدينية والدنيوية. ومفتاح كل هذه العلوم هو علم الحساب حيث به تعرف مقادير الأشياء وتقديرها ولهذا فقد أمر الله تعالى بتعلمه من الآيات الكونية كما تقدم. ولهذا فإن الميزان السببي يحتاج إلى بحث وتمعن في آيات الله الكونية، وما يخفى منه على الإنسان أكثر مما يعلم لهذا قال جل جلاله في ذلك عندما سئل الرسول ﷺ عن حقيقة الروح: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا

ولهذا فقد ذكر جل جلاله تقدم البشرية من الأقسام السابقة في هذا العلم السبيي ولكن هذا التقدم كان سببا في زيادة الغفلة ظنا منهم أنه يغني عن العلم الشرعي ولهذا قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَبْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ غافر. وقال تعالى: يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ الروم. وجاء في تفسير السعدي بيان ذلك أن هؤلاء الذين لا يعلمون أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها. وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعدت أسباب وجوده ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئا، فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها. وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت وغفلت عن الآخرة، فلا اللجنة تشتاق إليها ولا النار تخافها وتخشها ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة. ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب. وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا وأعجبوا بعقولهم ورأوا غيرهم عاجزا عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم وأشدهم غفلة عن آخرتهم وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون وفي ضلالهم يعمهون وفي باطلهم يترددون نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها و[ما] حرموا من العقل العالي فعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عبادته وإن هو إلا توفيقه وخذلانه فخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور

العقول والإيمان حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها بالإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرُّقِيَّ العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بنى كثير منها على الإلحاد لم تثر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير] [هـ].

وهذا فيه البيان الكافي في أن الطريق الواضح والسليم للرقى بالحضارة بما يرضي الله لا يكون إلا بالأخذ بالعلم الشرعي مع العلم السببي والتوجه إلى الله بالتوحيد والإخلاص والتقوى والعمل الصالح. وهذا ما يجب على الإنسان أن يعمل به ويعمل على تحقيقه ويتوكل على الله في ذلك كله. ويقول الشيخ ابن باز رحمه الله: ولكن على الأمة أن تتعلم أيضاً ما ينفعها في دنياها: من الصناعات النافعة، ومن الاستعانة بها على قتال الأعداء وجهاد الأعداء، فيتعلم شؤون الزراعة، ويتعلم شؤون استخراج خزائن الأرض: من البترول والمعادن وغير ذلك؛ حتى تستغني عن أعداء الله، وتستخرج من بطون الأرض ومن خزائن الأرض ما ينفعها (فتاوى الدروس، ما حكم من ينكر تعلم العلوم الدنيوية؟).

ومن الأمثلة على تقدم الأمم السابقة في العلم السببي (ولو بالنسبة لقريش والعرب) والذي كان سببا لتكبرها وتجبرها على أمر الله الشرعي وكفرها بالأنبياء والرسل هم عاد قوم هود عليه السلام حيث قال تعالى فيهم: وَلَقَدْ مَكَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّاهُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْتِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْتِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ الأحقاف. وهذا فيه أن الله جل جلاله يسر لعاد أسباب التمكين في الدنيا على نحو لم يمكن به غيرهم من العرب وكفار قريش كما جاء في عدة تفاسير. إلا أن هذا التمكين لم يكن سببا لهدايتهم رغم ما كان لهم من سمع وأبصار وقلوب ولكنهم كفروا واستهزؤا بأمر الله فغضب الله عليهم وأنزل عليهم عذابه. وهذا الأمر قد تكرر مع العديد من الأقوام السابقة كما في قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا

الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلِكَا هُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ الْأَنْعَامُ. وقوله تعالى: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ الروم. فهذه هي سنة الله ودأبه في الأمم السابقين التي كذبت رسلاها كما سيأتي بيان ذلك في حال الأمم مع الحق والميزان.

وأما الجن فلم يكن لهم التقدم في الحضارة وهذا لنقص عقولهم في إدراك العلم السببي. ولهذا كان كل الأنبياء والرسل من البشر فهم أكل عقلاً وأعلى فكراً وأعظم علماً. وهذا لأن الجن لا يدركون من الأسباب ما يمكن للبشر إدراكه ومن ذلك ما بينه جل جلاله في قوله عن الجن: فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ سبأ. حيث أنهم خدموا سليمان عليه السلام وهو ميت ظناً منهم أنه حيا. فلم يدركوا بعقولهم الناقصة أنه إذا لم يتحرك لفترة طويلة من الزمن فقد مات، وهذا ما يستطيع إدراكه العاقل بل حتى الطفل من البشر بكل سهولة. وقد جاء في تفسير السعدي بيان ذلك أن الجن كانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُري العباد كذبهم في هذه الدعوى، فكثروا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، واتكأ على عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حيا، وهابوه. فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى باد وسقط فسقط سليمان عليه السلام وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلوا مما هم فيه [هـ].

وكل هذا فيه البيان من الله جل جلاله للناس أن الجن ليس فقط لا يعلمون الغيب بل هم أنقص عقلا وفكرا وإن كانوا أكثر قوة بطبيعة مادة خلقهم وهي النار. إلا أن الإنسان قادر على إدراك الأسباب التي تمكنه من التفوق على الجن في القوة بالعلم السببي، ومن ذلك قصة عرش بالقيس حيث قال تعالى مخبرا عن سليمان عليه السلام: قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ^ص وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ^ج فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ^ط وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ^ط وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ التل. وقد جاء في تفسير السعدي أن هذا الذي عنده علم من الكتاب هو رجل عالم صالح عند سليمان يقال له: "آصف بن برخيا" كان يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا دعا الله به أجاب وإذا سأل به أعطى، بأن يدعو الله بذلك الاسم فيحضر حالا وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم هل هذا المراد، أم أن عنده علما من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد [هـ]. والأقرب والله أعلى وأعلم أن آصف كان لديه هذا العلم السببي الذي به يقرب البعيد ولهذا فقد نسب جل جلاله فعله للعلم وهو العلم السببي ولم ينسب فعله لإيمانه أو دعائه كما هو الحال مع سائر الأنبياء مثل ينوس عليه السلام في قوله تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ^ج وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْوَعْدَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء. وهذا العلم الذي كان لدى آصف يسمى علم التنقل الآتي للمحسوسات وإلى زماننا يبدو هذا العلم مستحيلا إدراكه إلا أنه يبقى علم سببي قد يدركه الإنسان إن علم أسبابه الموصلة إليه. ومن المعلوم أنه الإنسان في زماننا قد تمكن من تحقيق التنقل الآتي لغير المحسوسات كالصوت والصور وكافة البيانات الرقمية وغيرها من الأشياء المستخدمة في وسائل الاتصال التي كانت تبدووا مستحيلة في الماضي القريب. فلك أن تتأمل في الأسباب الموصلة لهذا العلم العظيم الذي إن أدركه المسلمون لسبقوا كل الأمم والحضارات وكتب

لهم التمكن إن أقاموا الحق والميزان مع الأخذ بهذا السبب العظيم.

وقد كان النبي ﷺ يرغب في العلوم النافعة بالعموم وأمر أصحابه بالدعاء فقال: سَلُوا اللَّهَ علماً نافعاً، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ (صححه الألباني في السلسلة). وكان النبي ﷺ يدعو بذلك فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ علماً نافعاً وأعوذُ بك مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ (صحيح ابن حبان). ومن ذلك فقد رغب النبي ﷺ أصحابه في علم الرمي لحاجة المسلمين له فقال: مَنْ عِلْمِ الرَّمِيِّ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي، أَوْ قَدْ عَصَى (صحيح مسلم، وصححه الألباني). ومن العلوم النافعة أيضاً علم الفيزياء والكيمياء التي بها يعرف سلوك المواد وأسبابها للاستفادة منها والإنتفاع بها كالحديد فقد قال تعالى عنه: وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ الْحَدِيدِ. ولقد بين ذلك السعدي رحمه الله في تفسيره فقال: وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد [هـ].

ومن فضل الله ومنه على عباده أنه يفتح على من يشاء من هذا العلم السببي لعباده الصالحين القائمين بالميزان الشرعي فجعل لهم من أسباب التمكن ما يعجز عليه غيرهم وهذا لحكمته سبحانه، كما فتح على ذي القرنين وعلى داود وسليمان عليهما السلام وعلى آصف رحمه الله وعلى نبينا محمد ﷺ وعلى الصالحين من بعده من أصحابه رضي الله عنهم إلى زمان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ومن بعده هارون الرشيد رحمه الله وما سيأتي في آخر الزمان في عهد المهدي المنتظر وعيسى عليه السلام، وسيأتي بيان وتفصيل كل ذلك في فصل الحكم الرشيد.

1.11.2 الميزان الغيبي

أما القسم الثاني فهو الميزان الغيبي أو العلم الغيبي وهو علم غير ظاهر لا يعلمه بالكلية ولا يملك مفاتيحه إلا الله جل جلاله كما في قوله تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ الأنعام. وقد أخبر النبي ﷺ عن عدد هذه المفاتيح فقال: مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ نَحْسٌ، ثُمَّ قَرَأَ: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ (صحيح البخاري). فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة كما في قوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ الحشر. ومنه ما أذن الله بمعرفته ومنه ما لم يأذن سبحانه بمعرفته والدليل على هذا قوله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ الجن. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي (صحيحه الألباني في السلسلة الصحيحة). وهذا فيه أن الله جل جلاله عنده علم لم يأذن بمعرفته لأحد من خلقه وهو العلم الذي استأثر به في علم الغيب عنده.

ومن الأمثلة على العلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته كعلم موعد وقوع الساعة كما في قوله تعالى: يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ الأحزاب. ولقد صح عن النبي وهو أشرف الناس أنه قال لجبريل هو أشرف الملائكة عن الساعة عندما سأله: فَنَقَى السَّاعَةَ؟ قَالَ مَا الْمُسْتَوَلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ (صحيح البخاري). ولهذا فقد أمر جل جلاله نبيه ببيان هذا الأمر وهو العلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته في قوله تعالى: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا

تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ الأنعام. وقوله تعالى: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ الأعراف. وأما العلم الغيبي الذي أذن الله بمعرفته فنه ما علمه الله لأتبياءه ورسله بالوحي ومن ذلك الكتب المنزل^طة التي فيها من القصص الفائتة كما في قوله تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ هود. وغير ذلك من الأخبار الفائتة كفترة مكوث أهل الكهف وعددهم، وقصص الأنبياء عليهم السلام. ومن ذلك أيضا الأحداث القادمة كما في قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ عَلَيْهَا الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ سبأ. وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تخبر بالأمر التي تحدث في المستقبل وفي آخر الزمان كنزول عيسى عليه السلام، وخروج الدابة، وإنهيار سد ذي القرنين، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الشمس من مغربها. فكل ما سبق فيه الدليل الواضح على أن الله سبحانه وتعالى أذن بمعرفة بعض العلم الغيبي لمن شاء من خلقه ولم يأذن بمعرفة بعضه الآخر. والعلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته أكثر مما علم الخلق كما في قوله تعالى: وَيسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء.

ومن المعلوم أن العلم الغيبي لا يمكن إدراكه بالكلية بالعلم السببي وإنما يدرك منه فقط ما أذن الله بمعرفته فجعل الله أسبابه وعلامته واضحة ومنظمة لكل عاقل لما في ذلك من مصالح دينية ودنيوية. فمثلا يتنبأ بالمطر من الغيم الأسود، وبالإنجاب من علامات الحمل، وبنهاية الشهر بمنازل القمر، وبطلوع الزرع بعد نزول المطر، وبطريق السير من سير النجم، وغير ذلك من الأسباب التي جعلها الله دلالات واضحة على ما ستؤول إليه الأشياء والأحوال في المستقبل ولو على وجه التقريب. وهنا يأتي

علم الحساب حيث به تحسب المقادير والأوزان والأحجام والأشكال والألوان والأصوات والحركات والأمكنة والأزمنة وغير ذلك من الأشياء التي تعرف بها الأسباب والقوانين التي جعلها سبحانه في هذا الكون. وتتفاوت هذه الأمور في إمكانية حسابها فنما ما يستحيل حسابه كالساعة سواء الكبرى أو الصغرى، ومنها ما يصعب حسابه كالملطر، ومنها ما يسهل ويعرف حسابه كأيام الشهر وساعات اليوم.

فكل هذه الأسباب مرجعها للعلم السببي ويدرك بها فقط جزء من العلم الغيبي الذي أذن الله به ومثال ذلك أن ذي القرنين بخبرته بأسباب الحديد علم أن مثال سده إلى الإنهيار لما علمه من تأكل الحديد كما في قوله تعالى: قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۚ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ الكهف. ومن ذلك أيضا علم التسيير الذي به يتنبأ بالمكان والزمان لمعرفة الطريق باستخدام مواضع النجوم كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ۚ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ الأنعام. وقد فسر السعدي ذلك أن الله جعل النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم. منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات. ودلت هذه الآية ونحوها، على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك [هـ]. وكل هذا فيه الدلالة الواضحة على قدرة الله جل جلاله وعظيم سلطانه، ولهذا فقد بين جل جلاله عظم مواقع النجوم فقال تعالى: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ الواقعة. وقد جاء في تفسير الطبري عن قتادة ومجاهد أن مواقع النجوم هي منازلها ومساقطها، ولقد أول ذلك ابن عباس وعكرمة ومجاهد أن

مواقع النجوم هي آيات القرآن نزلت متفرقة.²

ولهذا فإن التنبأ بالمستقبل بالحساب لا يكون دائماً صحيحاً أو دقيقاً وبالأخص في الأمور التي يصعب حسابها، فأمر الله الواقع قد يحجب عن خلقه لحكمته ومثال ذلك قوم هود إذ ظنوا أن الغيم الأسود علامة للمطر كما هو معتاد ولكنه كان عذاب الله كما في قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْجَرِيمِينَ ﴿٢٥﴾ الْأَحْقَاف. لهذا فإن الوقائع المستقبلية يختلف حسابها بحسب ما أذن الله بعرفته ومعرفة أسبابه ومقاديره، فالتى لا تخضع لنمط معين ومعروف لا يمكن التنبأ بها إلا على وجه التقريب. وتزداد دقة الحساب مع الزيادة في معرفة هذه الأسباب والمقادير والتي تتأتى بالبحث والتجربة والقياس والملاحظة وكل ذلك ممكن بالرجوع لآيات الله الكونية التي منها يتعلم الحساب.

ومن فضل الله ومنه أنه اختص بهذا العلم الغيبي من شاء من أنبياءه ورسله كل حسب حاله ومقامه. ومن ذلك ما فتح الله به على الخضر عليه السلام حيث علم من الأمور الغيبية ما لم يعلمه موسى عليه السلام. فكان الخضر عليه السلام أعلم من موسى في العلم الغيبي وكان موسى عليه السلام أعلم من الخضر في العلم الديني، وكل منهما كان نبياً ويأتيه الوحي من الله جل جلاله ولكن تفاوتوا في نوع العلم والفضل فوسى عليه السلام من أولى العزم من الرسل وكلم الله موسى تكليماً، فكل بحسب مقامه وما فضله الله به كما في قوله تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ الْبَقَرَة.

² ولقد رجح الطبري القول الأول وهو أن مواقع النجوم هي منازلها ومساقطها في السماء، وهذا بخلاف القول الثاني أن مواقع النجوم هو نزول آيات القرآن متفرقة، وإن كان القول لا يتعارضان بالضرورة.

وقد جاء في تفسير بن كثير عن بن عباس أن النبي ﷺ قال أن موسى قال للخضر: جئتكَ لتعلمني مما علمت رشداً. قال: يكفيكَ التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك. يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه.³ وقال بن عباس رضي الله عنه عن الخضر عليه السلام أنه كان رجلاً يعلم علم الغيب قد علم ذلك - فقال موسى: بلى. قال: (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً)؟ أي: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم [هـ]. وجاء أيضاً ما يؤكد هذا المعنى في تفسير القرطبي: وعلمناه من لدنا علماً أي علم الغيب، وقال ابن عطية: كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم [هـ]. وبينما الخضر وموسى عليهما السلام على السفينة، جاء عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَتَرَفَّ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عَلَيَّ وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ (صحيح البخاري).⁴

وكل هذا فيه أن الخضر علم ما ستؤول إليه الأمور بما علمه الله له من علم الغيب فعلم بذلك أن السفينة لو لم تعاب لأخذها الملك غضباً من المساكين، وأن الغلام لو لم يقتل فسوف يرهق أبواه المؤمنين طغياناً وكفراً، وأن الجدار لو لم يقام لسقط ولسرق كنز الغلامين اليتيمين أبناء الرجل الصالح. وما تصرف الخضر في هذه الأمور إلا لعلمه أن جميع هذه الأمور سيقع في علم الغيب كما أوحى الله إليه ذلك. ولكن من رحمة الله ومنه فقد أذن للخضر أن يصلح ذلك ولهذا فقد قال: وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ الكهف. وبهذا يتبين أن الخضر إنما أوتي هذا العلم العظيم

³ وهذا فيه أن الخضر لديه من العلم الغيبي الذي لا يعلمه موسى وأن موسى لديه من العلم الدني الذي لا يعلمه الخضر.

⁴ وهذا فيه أن الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلاً كما تقدم في معنى قوله تعالى: وَاسْأَلُونَا عَنْ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء.

لمصلحة الناس وليس للإضرار بهم أي للإصلاح الديني وهذا فيه بيان الرشد والذي به تجلب المصالح الدينية والدينية معا. وهذا ما أراد موسى تعلمه لهذا: قَالَ لَهُ مُوسَى تَعْلَمُهُ لِهَذَا: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ الكهف. وهذا فيه أن المصالح الدينية لا تجلب فقط بالعلم الديني الذي به يكون الإصلاح الديني بل إن ذلك يتطلب العلم الذي به يكون الإصلاح الديني ولهذا فقد قال الخضر عليه السلام: قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ الكهف. وهذا فيه أن الخضر عليه السلام اختص بالإصلاح الديني مع ما كان لديه من الإصلاح الديني بينما موسى عليه السلام اختص بالإصلاح الديني فقط. وفيه أيضا أنه بالعلم والخبرة تجلب المصالح الدينية وبالعلم الديني تجلب المصالح الدينية وسيأتي تفصيل ذلك في فصل الحكم الرشيد بإذن الله. وفي هذه القصة بيان تدبير الله جل جلاله فإنه يعلم سبحانه ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون فسبحان الله الذي وسع كل شيء وأحاط به علما.

1.12 أقسام الميزان الشرعي

1.12.1 الميزان القطري

فالميزان القطري أو العلم القطري فهو الذي يدرك بالفطرة السليمة الموافقة للعقل والتي فطر الله الناس عليها فيعرف به الخير من الشر والعدل من الظلم والإسلام من الكفر وغير ذلك من الأمور التي فطر الله الناس عليها والدليل على هذا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَيْهَمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فِطَرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا [الروم: 30] الآية (صحيح

البخاري). ومن الأمور التي تخالف الميزان الفطري مثل الشرك (وبالأخص شرك الربوبية) والمجاهرة بالمعاصي والقتل والواط والسرقه والغش في الكيل فهي أمور تدرّك بالفطرة السليمة الموافقة للعقل ويمكن إثباتها لكل ذي عقل حتى بدون وحي. ومن ذلك أن أغلب الأمم مسلمة كانت أو كافرة اتفقت على فرض عقوبات على السرقه والغش على سبيل المثال موافقة ذلك للفطرة السليمة.

ولهذا فإن مخالفة الميزان الفطري هي أشد جرمًا من مخالفة الميزان الديني لأنها تعارض فطرة الله التي فطر الناس عليها والتي يمكن إدراكها حتى بدون وحي. ويعتبر الميزان الفطري أدنى مراتب العدل وفي معارضة هذا الميزان تعجيل سخط الله وعقوبته في الدنيا قبل الآخرة. والميزان الفطري ناقص وهو أدنى مرتبة من الميزان الديني حيث لا يمكن به إدراك العديد من الأمور الشرعية التي يحتاج إلى الوحي لإدراكها ومنها العقيدة والعبادات والأحكام الشرعية وغيرها من الأمور التي لا يمكن إدراكها بالفطرة السليمة فقط. ولهذا فقد أرسل الله جل جلاله الرسل وأنزل الكتب لبيان الميزان الديني والذي به يكتمل بيان الميزان الشرعي الذي أمر الله عباده به.

والميزان الفطري فيه الحجة لإدراك دين الإسلام لموافقته الفطرة كما سيأتي في بيان الميزان الديني. فقد جاء في الحديث القدسي عن الله تعالى: إني خلقتُ عبّادي حنفاءً فاجتالهم الشياطينُ فخرّمتُ عليهم ما أحللتُ لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً (صحيح، مجموع الفتاوى لابن تيمية). ولهذا فإن الشياطين لا تسعى لإفساد الميزان الديني فقط وإنما تسعى لإفساد الميزان الفطري والديني معا كما في قوله تعالى عن ابليس: وَلَا ضِلَّيْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرَمَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَمَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ النساء. وقد جاء بيان ذلك في تفسير السعدي أن الله تعالى خلق عباده حنفاءً مفطورين على قبول الحق وإثارة، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده ووجهه ومعرفته. فافترسّهم الشياطين في هذا الموضع اقتراس السبع والذئباب للغنم المنفردة، ففسدوا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخبيّة والصفقة الخاسرة. ولولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين [هـ].

وقد جاء في تفسير ابن كثير أن ابن عباس قال: أتى علي زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين. حتى حدثني فلان عن فلان: أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال: "الله أعلم بما كانوا عاملين". فأمسكت عن قولي [هـ]. وهذا فيه أن ابن عباس امسك عن قوله بفصل أولاد المسلمين عن أولاد المشركين في اللعب عندما علم قول الرسول ﷺ أن أولاد المشركين أيضا على الفطرة السمحة التي فطر الله الناس عليها. وهذا ما يوافق باقي الأحاديث والآيات كما تقدم.

وجاء أيضا في تفسير ابن كثير عن الفطرة أنه لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك [هـ]. وبهذا يعلم أن المكلفين قد تساوا في الميزان الفطري عند نشأتهم وهذا من عدل الله إذ أعطاهم سبحانه الفطرة السليمة الموافقة للعقل حتى يدركوا بذلك الميزان الديني. ولكن هذه الفطرة قد تفسد فيضل صاحبها عند البلوغ فإن شاء الله هداه وإن شاء أزاعه وكل ذلك بهداية الله الكونية. ونقل هذا المعنى القرطبي في تفسيره عن شيخه أبو العباس قوله: قال شيخنا في عبارته: إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام وهو الدين الحق. وقد دل على صحة هذا المعنى قوله: كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليما من الآفات، فلو ترك على أصل تلك الخلقة لبقى كاملا بريئا

من العيوب، لكن يتصرف فيه فيجدع أذنه ويوسم وجهه، فطراً عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل؛ وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح [هـ]. فرحم الله علماء قرطبة من الأندلس الأسبانية الذين بينوا هذا المعنى العظيم.

1.12.2 الميزان الديني

وأما القسم الثاني من الميزان الشرعي فهو الميزان الديني أو العلم الديني وهو موافق للميزان الفطري ومكمل له. ويدرك العلم الديني بالوحي بالمنزل من عند الله تبارك وتعالى على الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. ولهذا فقد أثبت سبحانه موافقة دينه للفطرة التي فطر الناس عليها في قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ الروم. وهذه فيه أن الميزان الديني الذي أنزله الله كان ولا يزال موافقاً للفطرة ومكملاً لها وهو دين الإسلام الذي أرسلت به كل الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

ومن الأمور التي تخالف الميزان الديني مثل الشرك (وبالأخص شرك الألوهية)، ومنع الزكاة، والحكم بغير ما أنزل الله كتحریم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله وغير ذلك من الأمور التي تخالف أمر الله ورسوله والتي يمكن إدراكها بالوحي المنزل وبالجملة الواضحة والبيّنة إستناداً إلى جاء في كتاب الله عز وجل، أو صح في سنه نبيه الكريم، أو ثبت عن سبيل المؤمنين من السلف الصالحين.

ولهذا فقد أمر الله عز وجل جميع الأنبياء لدعوة المشركين لعبادة الله وحده لا شريك له (أي إلى توحيد الألوهية) وإقامة الحجة عليهم بالميزان الفطري أي بإيمانهم بأن الله هو من خلقهم وخلق السموات والأرض وهو مدبر الكون (أي بإيمانهم بتوحيد الربوبية) كما في قوله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ

مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ الزمر. وفي قوله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ الزخرف. فوصف الله جل جلاله هؤلاء بأن أكثرهم لا يعقلون في قوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ العنكبوت. ووصفهم جل جلاله أيضا بأنهم لا يعلمون في قوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لقمان. ؛ أولا لا يعقلون لمخالفتهم الميزان الفطري الموافق للعقل وثانيا لا يعلمون لمخالفتهم الميزان الديني وهو أمر الله المنزل من عنده.

ولهذا فقد بين ذلك إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر كما في قوله تعالى: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ مريم. فحاجه أولا بالميزان الفطري الذي يقام بالحجة العقلية على بطلان عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، وحاجه ثانيا بالميزان الديني الذي يقام بالعلم الصحيح المنزل من الله تبارك وتعالى وهو الوحي الموافق للفترة والمكمل لها. وبين له الحكم الجزائي للشرك الموجب لعذاب الله فأقام عليه بذلك الحجة الكاملة والواضحة.

والعلم الديني هو ما قام عليه الدليل من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ وهو الحق وهو الهدى الذي يهدي إلى الطريق المستقيم الذي يرضي الله جل جلاله ولهذا فقد قال النبي ﷺ: تَرَكْتُ فِيكُمْ أُمْرَيْنِ؛ لَنْ تَضِلُّوْا مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ (صحيح الترغيب).

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً عن نفسه في بيان العلم الديني الذي جاء به فقال: مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قِيلَتِ الْمَاءُ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءُ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تَمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ (صحيح البخاري).

وخير هذا العلم هو القرآن كتاب الله فقد قال النبي ﷺ: إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَهُ (صحيح البخاري). وقد كان ﷺ يعلم أصحابه القرآن ويدعوا لهم فعن عبد الله بن عباس قال: ضَمَّنِي إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَفِي رِوَايَةٍ: اللَّهُمَّ عَلَيْهِ الْحِكْمَةَ (صحيح البخاري). وقد كان النبي ﷺ يرغب أصحابه في حفظ كتاب الله عز وجل فقال: لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلِمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارُهُ، فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ (صحيح البخاري).

ولقد كلف سبحانه عباده بالإجتهد بهذا العلم مع العمل يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ النَّسَاءِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ الْمَائِدَةِ وعدم التقليد فيه وحجة لك أو عليك فقال جل جلاله: وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ الْأَحْزَابِ

والعلم الديني نافع وحجة لصاحبه مع العمل الموافق لأمر الله الشرعي، وغير نافع وحجة على صاحبه مع العمل المخالف لأمر الله الشرعي. ومن أعظم العمل المخالف لأمر الله للرياء كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: أَوْلَيْتَكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقٍ اللَّهُ تَسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وقال ابن رَجَب:

(أَوَّلُ مَنْ تُسْعَرُ بِهِ النَّارُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الْعِبَادُ الْمُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَأَوَّلُهُمُ الْعَالِمُ وَالْمُجَاهِدُ وَالْمُتَصَدِّقُ لِلرِّيَاءِ؛ لِأَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ) (كلمة الإخلاص). وقال ابن القيم: إِنَّ النَّارَ أَوَّلُ مَا تُسْعَرُ بِالْعَالِمِ وَالْمُنْفِقِ وَالْمُقْتُولِ فِي الْجِهَادِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِيُقَالَ (زاد المعاد). يقول الشيخ العثيمين رحمه الله في ذلك: لَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ؛ لِأَنَّ ثَمَرَةَ الْعِلْمِ الْعَمَلُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ صَارَ مِنَ أَوَّلِ مَنْ تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ قِيلَ: وَعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلْ مُعَذَّبٌ مِنْ قَبْلِ عِبَادِ الْوَتَنِ، فَإِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ أُورِثَ الْفَشْلَ فِي الْعِلْمِ وَعَدِمَ الْبَرَكَةَ وَنِسْيَانَ الْعِلْمِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِفَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ [الرعد هـ].

والعلم الديني هو العلم الذي يرفع قبل قيام الساعة كما ثبت عن عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامًا، يُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرْجُ وَالْهَرْجُ: الْقَتْلُ (صحيح البخاري). وفي حديث آخر عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيُثْبِتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيُظْهَرَ الزِّنَا (صحيح البخاري). وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقْبِضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتُظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ - وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ - حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ (صحيح البخاري). وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ وَإِمَّا قَالَ: مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيُظْهَرَ الزِّنَا، وَيَقْتُلَ الرَّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِلْمُحْسِنِينَ امْرَأَةٌ الْقِيمِ الْوَاحِدُ (صحيح البخاري). وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسْتَلُوا فَافْتَوَا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا (صحيح البخاري). وهذا فيه أن العلم الذي يرفع إنما هو العلم الديني وليس العلم

1.13 الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب

أرسل الله عز وجل رسله بالكتاب أولاً ليبيان الحق وهو العلم الشرعي الصحيح ومن ثم لإقامة الميزان الشرعي بالقسط والعدل بين الناس حيث يقول جل جلاله: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ الحديد. فالكتاب هو الحق كما في قوله تعالى: وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ البقرة. والقسط في الكيل والوزن والعدل بين الناس من إقامة الميزان الشرعي وهو من الأمور التي أوصى الله تعالى بها. وقد دلنا سبحانه في هذه الآية على الحديد والأخذ به لنصرة الله جل جلاله ورسله ونصرة الحق الذي جاءوا به.

وقد جاء في تفسير الطبري: عن قتادة (الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) قال: الميزان: العدل [٠] وقال ابن زيد، في قوله: (وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) بالحق؛ قال: الميزان: ما يعمل الناس، ويتعاطون عليه في الدنيا من معاشهم التي يأخذون ويعطون، يأخذون بميزان، ويعطون بميزان، يعرف ما يأخذ وما يعطي. قال: والكتاب فيه دين الناس الذي يعملون ويتركون، فالكتاب للآخرة، والميزان للدنيا. وقوله: (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) يقول تعالى ذكره: ليعمل الناس بينهم بالعدل. وقوله: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) يقول تعالى ذكره: وأنزلنا لهم الحديد فيه بأس شديد، يقول: فيه قوة شديدة، ومنافع للناس، وذلك ما ينتفعون به منه عند لقاءهم العدو، وغير ذلك من منفعه [٠] وقوله: (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) يقول تعالى ذكره: أرسلنا رسلنا إلى خلقنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليعدوا

بينهم، وليعلم حزب الله من ينصر دين الله ورسله بالغيب [هـ].

وجاء في تفسير ابن كثير: (وأُنزلنا معهم الكتاب) وهو: النقل المصدق (والميزان) وهو: العدل قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما. وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة [و]. ولهذا قال في هذه الآية: (ليقوم الناس بالقسط) أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاءوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) [الأعام: 115] أي: صدقا في الإخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي ولهذا يقول المؤمنون إذا تبرؤوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق) [الأعراف: 43]. وقوله: (وأُنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أي: وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجّة عليه [و]. ولهذا قال تعالى: (فيه بأس شديد) يعني: السلاح كالسيوف، والحراب، والسنان، والنصال، والدروع، ونحوها (ومنافع للناس) أي: في معاشهم كالسكة، والنفاس، والقدوم، والمنشار، والإزميل، والمجرفة، والآلات التي يستعان بها في الحراثة، والحياكة، والطبخ، والخبز، وما لا قوام للناس بدونه، وغير ذلك. [و] وقوله: (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أي: من نيته في حمل السلاح نصره الله ورسله، (إن الله قوي عزيز) أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضهم ببعض [هـ].

وفي هذا دليل على أن نصره الله ورسله تكون بثلاثة أمور وهي: (1) إقامة الحق في نفوس الناس بالعلم الشرعي الصحيح، (2) إقامة الميزان الشرعي بين الناس بالعدل والقسط، (3) الأخذ بأسباب القوى كالحديد وما يلزم ذلك من علوم كالحساب والطب والفيزياء وغيرها من العلوم السببية التي تكمن للمسلمين من دحر الأعداء ونشر الحق ونصرته. وهذه الأمور الثلاثة هي أركان الحكم الرشيد التي

بها يكون التمكن كما سيأتي بيان ذلك في فصل الحكم الرشيد.

فإنه جل جلاله أنزل كتابه لتحقيق هذه الغاية العظيمة وهي إقامة الحق والميزان الشرعي كما بين ذلك في قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ الشورى. فذكر الله الميزان إلحاقاً بالحق لأن الحق لا يكون إلا بالعلم الصحيح وهو يقتضي الميزان الشرعي الذي لا يكون إلا بالعمل الصحيح الموافق للحق ومنه العدل والقسط كما أمر تعالى ومن ذلك بلا شك الحساب الصحيح. فإقامة الميزان الشرعي من الوصايا العشر من سورة الأنعام في قوله تعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ الأنعام. فقرن الله عز وجل في هذه الآيات بين الكيل والميزان والعدل في القول والوفاء بالعهد. وفيه أن الميزان والكيل لا يكون إلا بالقسط وهو العدل الظاهر. وفيه أن العدل ذكر مع ذا القربى ولذلك يكون العدل بين الناس. وأيضاً من الوصايا التي ذكرها الله في سورة الإسراء في قوله تعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ الإسراء. يقول السعدي في تفسيره: وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكييل والموازن بالقسط من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى النبي عن كل غش في ثمن أو مشتمن أو معقود عليه والأمر بالنصح والصدق في المعاملة [هـ]. ومن ذلك بلا شك الحساب ولذلك وجب الوفاء والصدق فيه من غير غش ولا تضليل وإقامة الميزان فيه بالقسط كما في الكيل.

وإقامة الحق تكون بالعلم الشرعي الصحيح بيانه والعمل به في النفوس وفيه صلاح الآخرة وإقامة الميزان تكون بالعدل فيما بين النفوس وفيه صلاح الدنيا. ولهذا فقد قال ابن القيم رحمه الله: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة هو العلم والعدل، وأصل كل شر في الدنيا والآخرة الجهل والظلم [هـ] (إغاثة اللفهان في مصائد الشيطان).

1.14 تفاوت الرسل في العلم والفضل ودعوتهم واحدة

لا شك أن الأنبياء والرسل قد تفاوتوا في العلم والفضل والدليل قوله تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ^ط وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ^ج وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَنُهِمَ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ البقرة. وقوله تعالى: وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ^ط وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ الإسراء. ومن أمثلة ذلك ما تقدم في التفاوت في العلم والفضل بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام.

ولكن جميع الرسل دعوتهم واحدة وهي الدعوة إلى إقامة الحق والميزان ومن أعظم ذلك الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما في قوله تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ^ط فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ النحل. وقوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ الأنبياء. وهذه الدعوة إنما هي دين الإسلام الذي أرسل الله به جميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهذا فيه أن الدعوة إلى الإسلام واحدة وهي دعوة إلى توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والعبادات والأحكام الشرعية وغيرها من الأمور التي تدعو إليها الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما في قوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ^ط اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ الشورى.

وبهذا يتبين أنه لا يمكن التفریق أو التفضیل بین دعوة الرسل فدعوتهم واحدة كما قال جل جلاله: قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ البقرة. وقال تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ البقرة.

ولهذا فقد نهى النبي ﷺ عن التفضيل بينه وبين الأنبياء على سبيل الاستنقاص أو على وجه التعصب أو التفریق أو التفاخر لما في ذلك بطر للحق ومن أعظم ذلك عدم إرجاع هذا الفضل لله تبارك وتعالى والذي بيده هذا التفضيل كما تقدم دليل ذلك، ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْزِضُ سِلْعَةً لَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا، كَرِهَهُ -أَوْ لَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ: لَا، وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ، قَالَ: فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، قَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهَرِنَا؟! قَالَ: فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، وَقَالَ: فَلَا لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ قَالَ: قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ، وَأَنْتَ بَيْنَ أَظْهَرِنَا! قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُفْضِلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: ثُمَّ يَنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحْسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ (صحيح مسلم، وصححه الألباني). وفي رواية أخرى: لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فَإِذَا مُوسَىٰ بَاطِشٌ فِي

جانب العرش، فلا أدري أكان مَنْ صُبعَ فأفاق قبلي، أو كان مَنْ استثنَى الله عَرَّ وجلَّ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني).

فهذا النبي جاء لأنه لم يكن لبيان فضل الله على أنبياءه ورسله بما فضلهم الله به وإنما كان على سبيل الإستقصاء أو التعصب أو التفريق أو التفاخر أو غير ذلك من الأمور التي تعارض ما جئوا به كأنما دعوتهم ليست بواحدة وهذا بخلاف التفضيل الذي فاضل الله به بين أنبياءه ورسله والذي فيه عدل الله تبارك وتعالى حيث اثبت سبحانه التفاوت بينهم في العلم والفضل ونفى التفريق بينهم في الدعوة. وبهذا يكون المعنى الصحيح لقوله ﷺ (لا تفضلوا بين أنبياء الله) أي لا تفضلوا بين أنبياء الله تفضيلاً يخالف التفضيل الذي فاضلهم الله به. وكذلك يقال بين نبينا ﷺ وبين موسى عليه السلام أو بين نبينا ﷺ وبين يونس عليه السلام. والله أعلى وأعلم.

1.15 الإصلاح وأنواعه

قد تقدم معنا تفاوت الأنبياء في العلم والفضل ولكن دعوتهم واحدة وهي دعوة إلى إقامة الحق والميزان ومن ذلك عبادة الله وحده لا شريك له. وهذه الدعوة تحتاج إلى إصلاح الناس وهذا الإصلاح يكون بالعلم النافع والعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا الإصلاح يكون إما إصلاح ديني أو إصلاح دنيوي أو كلاهما ومثال ذلك قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام. فالخضر عليه السلام اختصه الله بعلم الغيب للإصلاح الدنيوي وأما موسى عليه السلام فاختصه الله بالعلم الديني للإصلاح الديني. فكان للخضر الرشد والذي فيه الإصلاح الديني والدنيوي معا وكان لموسى الحكمة التي فيها الإصلاح الديني فقط. بينما فضل الله جل جلاله موسى عليه السلام

في الفضل والعلم لما كان معه من العلم والحكمة في أمر الله الشرعي.

فالإنبياء جاءوا بالحق والميزان لحكمة الله عز وجل ومن ذلك الإصلاح الديني والدنيوي. ولكن أغلب الرسل اختصهم الله جل جلاله للإصلاح الديني لأن الإصلاح الديني فيه صلاح العباد والذي به تدرك مصالح الدنيا والآخرة ومن ذلك الصدق والأمانة وغيرها من الخصال التي توافق الفطرة والدين وتعود بالنفع الديني والدنيوي. إلا أن العديد من المنافع الدنيوية الأخرى لا تدرك بالعلم الديني فقط وإنما تدرك بالعلم السببي كعلم الطب والهندسة وغيرها من العلوم النافعة التي ينتفع بها الناس في أمور دنياهم وآخرتهم. وقد من الله سبحانه وتعالى على كل البشر فجعل لهم كل ما يحتاجونه من عقل وفطرة لإدراك هذا العلم السببي كما تقدم بيانه.

ومن ذلك أن الله اختص النبي ﷺ بالعلم الشرعي للإصلاح الديني وليس بالعلم السببي ومن ذلك ما رواه العديد من الصحابة رضوان الله عليهم في قصة تلقيح النخل، ومنها أن أنس بن مالك قال: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يَلْقَحُونَ، فَقَالَ: لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ قَالَ: نَخْرَجُ شَيْصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: مَا لِنِخْلِكُمْ؟ قَالُوا: قُلْتُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ (صحيح مسلم). وحديث طلحة بن عبيد الله حيث قال: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُؤُوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا: يَلْقَحُونَهُ؛ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا، قَالَ: فَأَخْبِرُوا بِذَلِكَ فَمَرَّوْهُ، فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ؛ فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئًا، نَحْنُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (صحيح مسلم). وحديث رافع بن خديج حيث قال: قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ، يَقُولُونَ: يَلْقَحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: مَا تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: كَمَا نَصْنَعُهُ، قَالَ: لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا، فَمَرَّوْهُ، فَفَضَّتْ -أَوْ فَفَضَّتْ- قَالَ:

فَدَرَكُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ، تَخَذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ (صحيح مسلم).

وكل ما تقدم فيه أن نبينا ﷺ أقر لهم بأنهم أعلم بأمور دينهم أي بالعلم السببي لهذا فقد قال: (إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه)، وفرق عليه ﷺ بين أمر الله جل جلاله الذي به يكون الإصلاح الديني وبين أمور الدنيا التي بها يكون الإصلاح الدنيوي. فجعل كلامه ﷺ في أمور الدنيا ظن وقال: (لا تَوَاخِذُونِي بِهِ) ولكن كلامه في أمر الله حق. وبين النبي ﷺ أنه بشر يخطئ ويصيب في أمور الدنيا كغيره من البشر ولهذا قال: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ، تَخَذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ). وهذا من تواضعه وصدقه ﷺ فهو الصادق الأمين الذي لا يكذب على الله ولا على الناس عليه الصلاة والسلام.

ولقد قال جل جلاله في كتابه: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۚ فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ الكهف. وقد جاء في تفسير الطبري أن معنى ذلك: أي قل لهؤلاء المشركين يا محمد: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وإن الله يوحى إلي أن أعبدكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، معبود واحد لا ثاني له، ولا شريك (فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ) يقول: فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته (فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية [هـ].

1.16 الحكمة والرشاد

ذكر جل جلاله الحكمة والرشاد في مواضع مختلفة في كتابه الكريم. فالحكمة فيها الإصلاح الديني بالعلم الشرعي الصحيح الموافق للحق وفيها العمل الموافق للميزان الشرعي. وأما الرشاد فهو أعم ومنه الحكمة بالإضافة إلى العلم بالأسباب والأخذ بها، أي أن الرشاد يكون بمعنى الإصلاح الديني فقط أو الإصلاح الدنيوي فقط أو كلاهما معا. فالرشاد الديني هي الهداية التي بها تجلب المصالح الشرعية، ويطلق الرشاد أيضا على الأمور التي بها تجلب المصالح الدنيوية مثل العلم السبيي. فيكون بذلك الرشاد الكامل يشمل إقامة الحق بالعلم الصحيح وإقامة الميزان بالعدل والعلم بالأسباب والأخذ بها. ولا يلزم أن الرشاد أفضل من الحكمة على وجه الإطلاق وإنما التفاضل يرجع للعلم والعمل بأمر الله الشرعي.

ج ولقد اختص جل جلاله من خلقه من يشاء بالحكمة فقال سبحانه وتعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ البقرة. وقد ذكر السعدي في تفسيره: لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرا كثيرا وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين

لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الأبواب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرتهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الأبواب، فلهذا قال تعالى: (وما يذكر إلا أولو الأبواب) [هـ].

ومن رحمة الله جل جلاله أنه جعل نبينا الكريم ﷺ معلما لأمته لهذه الحكمة فقال جل جلاله: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ البقرة. وقد جاء في تفسير ابن كثير أنه تعالى يذكر عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبینات ویزکيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق وندس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهي السنة [هـ]. وقال السعدي أن معنى وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، وَالْحِكْمَةُ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها. فيكون - على هذا - تعليم السنة داخلا في تعليم الكتاب، لأن السنة، تبين القرآن وتفسره، وتعتبر عنه [هـ].

وأما الرشاد قد يكون بمعنى الإصلاح الديني فقط وهو الهداية لإتباع الحق كقوله تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾. ومعنى يرشدون أي يهتدون فيحصل لهم الرشاد الديني الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة كما جاء في تفسير السعدي. وأيضا قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ غافر. وجاء معنى هذا في تفسير الطبري أي: إن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقول لكم، بينت لكم طريق الصواب الذي ترشدون إذا

أخذتم فيه وسلكتموه وذلك هو دين الله الذي ابتهت به موسى. وكل هذا من الإصلاح الديني والهداية. ويأتي الرشد أيضا بمعنى الإصلاح الدنيوي فقط كقوله تعالى: قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ بِنَا أَعْلَمَ رَبِّكَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ الكهف، وهذا لأن موسى عليه السلام كان لديه الإصلاح الديني وهو أعلم من الخضر عليه السلام في ذلك. ويأتي الرشد أيضا بمعنى الإصلاح الديني والدنيوي معا كقوله تعالى: إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رُشْدًا ﴿١٠﴾ يونس، وهذا فيه أولا صلاح الدين حيث أن الله جل جلاله هداهم وزادهم هدى، وثانيا صلاح الدنيا حيث جعل سبحانه وتعالى لهم حفظ البدن مع طول الفترة المكوث في الكهف فرارا من قومهم. وكال الرشد لا يدركه الإنسان بسهولة لأنه يتطلب الجمع بين العلم الشرعي والعلم السبيي معا وهذا الأمر يعطيه الله لمن شاء من عباده ولهذا فقد أمر جل جلاله نبيه الكريم ﷺ فقال: وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رُشْدًا ﴿٢٤﴾ الكهف. وقال السعدي في تفسيره: فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد. وحي بعد، تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره [هـ].

والرشد إن جمع مع الهداية يكون بمعنى الإصلاح الدنيوي، وتكون الهداية بمعنى الحكمة والتي بها يكون الإصلاح الديني. ولهذا فإن نبينا الكريم ﷺ بدأ بالإصلاح الديني وسمى الخلفاء من بعده بالخلفاء الراشدين حتى يقوموا بالإصلاح الديني والدنيوي معا حيث قال ﷺ: عَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ خُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي (صححه الألباني). وفي رواية أخرى: المهديين الراشدين (صحيح الجامع، صححه الألباني).

1.17 مكانة أهل العلم الشرعي

إن أهل العلم الشرعي هم القائمين بالإصلاح الديني وهم الذين يأمرون الناس بالقسط فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فهم أعلم الناس بالحق كما في قوله تعالى: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦٦﴾ سبأ. وهذا لأن الحق يهدي إلى الطريق المستقيم كما ذكر تعالى في هذه الآية وفي قوله تعالى: وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ^ق وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ الحج. فأهل العلم الشرعي يبينون للناس الحق الذي جاءت به الرسل والأنبياء ساعين إلى الهداية الشرعية للناس وراحين لهم الهداية الكونية من الله جل جلاله. وقد جعل الله جل جلاله أهل العلم حجة على الناس لما معهم من الحق فكانوا بذلك هم ورثة الأنبياء في الأرض فقد قال تعالى: قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ الإسراء. وقوله تعالى: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ العنكبوت.

ولهذا فقد رفع الله مكانة أهل الإيمان وأهل العلم في الدنيا والأخرة لما عرفوا من الحق كما في قوله تعالى: يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ المجادلة. ومن أعظم ذلك قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران. يقول السعدي في تفسيره: هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم [٥]. وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه،

فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائلون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهداه تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم آمناء على ما استرعاهم عليه [هـ].

ومن أعظم المنكر قتل الأنبياء أو الذين يأمرون الناس بالقسط القائمين بالإصلاح الديني أو الإصلاح الدنيوي أو كلاهما. ولهذا فقد قال جل جلاله ذمه لأهل الكتاب لبيان هذا الجرم العظيم في قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾** آل عمران. وقد جاء في تفسير السعدي أن هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرماً وأبي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيزهم، وتوقيعهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر المعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها،

ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح [هـ].

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء
 قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس (صحيحه الألباني في السلسلة الصحيحة). وفي
 زيادة: وليأرزن الإسلام إلى ما بين المسجلين كما تأرز الحية إلى جحرها (غريب أورده ابن حجر العسقلاني
 في موافقة الخبر الخبير). وفي رواية: الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سُنِّي (قال الألباني ضعيف
 جداً).

عن أنس رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله متى تترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال
 إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم السابقة وفي رواية في بني إسرائيل قالوا يا رسول الله وما ظهر في
 الأمم قبلنا قال الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالتكم (حسنه السخاوي والوادعي وضعفه
 الألباني).

فالأمر بالمعروف واجب على كل مسلم إلى أن يشاء الله.

1.18 حال الأنبياء وأتباعهم مع الميزان الشرعي

ولما كان الأنبياء أعلم الناس بأمر الله وأحرصهم، فقد أقاموا الميزان الشرعي حتى إقامته في حكمهم
 الرشيد بين الخلق. ومثال ذلك يوسف عليه السلام في قوله تعالى: قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ
 إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ يوسف. وهذا فيه حرصه عليه السلام على إقامة الكيل والوزن بما يرضي الله
 وهذا من الإصلاح الذي أمر الله به حيث قال لإخوته عن الكيل: وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي
 بِأُجْرَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْأَوْتَرُونَ أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ

عندي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ يوسف.

فلا شك أن التفريط في الكيل والوزن من أعظم البلايا التي حذرنا الله عز وجل منها في كتابه الكريم فيقول تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيَلُّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ الْمُطَفِّفِينَ. فالظلم في الكيل والوزن من الإفساد العظيم ومن أسباب تعجيل العذاب في الدنيا قبل الآخرة، وفي قصة مدين مع نبيهم شعيبا العبرة الواضحة في ذلك. يقول تعالى على لسان نبيه شعيب محذرا قومه: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ الْأَعْرَاف. وفي موضع آخر من سورة الشعراء: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ الشعراء. وفي سورة هود: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ هود. وهذا فيه أن شعيبا عليه السلام دعا قومه لإقامة الحق أولا وهو التوحيد بإفراد الله بالعبادة وثانيا لإقامة الميزان الشرعي وهو الكيل والوزن بالقسط. وفيه أن يخس الناس أشياءهم والخسران والنقصان في الكيل والوزن من الظلم والفساد الموجب لسخط الله وعذابه العاجل.

ونبينا ﷺ كان من أحرص الناس في إقامة الكيل والميزان وحذر من الفساد في ذلك في العديد من المواضع منها ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لأَصْحَابِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ: «إِنَّكُمْ قَدْ وُئِيتُمْ أَفْزَنُ هَلَكْتُمْ فِيهِمَا الْأُمَمُ السَّابِقَةُ قَبْلُكُمْ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. وقد علم الصحابة والتابعين بأهمية إقامة الميزان والمكيال وأن الفساد فيهما من أسباب سخط الله ومنه ما ورد في كتاب الموطأ للإمام مالك عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ، يَقُولُ إِذَا جِئْتَ أَرْضًا يُوفُونَ الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ فَأَطِلِ الْمَقَامَ بِهَا وَإِذَا جِئْتَ أَرْضًا يُنْقِصُونَ الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ فَأَقْلِلِ الْمَقَامَ بِهَا.

1.19 حال الأمم مع الحق والميزان الشرعي

من عدل الله جل جلاله أن سنته في خلقه من الأمم السابقة واللاحقة ثابتة كما قال تعالى: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ^ط وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ الأحزاب، أي أن سنة الله لا تبدل ولا تغير كما جاء في تفسير ابن كثير. والتفاوت في العقوبة أو التمكين أو الهوان للأمم السابقة أو اللاحقة في الدنيا كل بحسب حاله وما يستحقه بما شاء الله جل جلاله بعدله أو رحمته أو حكمته. وحال الأمم في الدنيا، سواء كانت كافرة أو مسلمة، يدور مع الحق والميزان في خمسة أحوال من الأشد عقوبة إلى الأهون عقوبة، أو من الأقل تمكيناً إلى الأكثر تمكيناً، أو من الأكثر هواناً إلى الأقل هواناً:

• الدولة الكافرة الظالمة الهالكة

• الدولة المسلمة الظالمة

• الدولة الكافرة الظالمة

• الدولة الكافرة العادلة

• الدولة المؤمنة العادلة

وهذا الترتيب فيه تقديم الميزان على الحق في الدنيا بحسب ما قامت به الحجة. وهذا لأن الله جل جلاله قدم في الدنيا المصلحة العامة التي تكون بين الناس على المصلحة الشخصية التي تكون في النفس، فجعل سبحانه إقامة الميزان أي العدل بين الناس والإصلاح فيما بينهم في الدنيا مقدما على إقامة الحق في نفوس الناس. وهذا لأنه بالعدل في الدنيا تحفظ الأموال والأعراض والدماء، فلا تصلح الحياة إلا بالإصلاح الذي يكون بالعدل والدليل على هذا قوله تعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ هود. وقد جاء في تفسير الطبري أن معنى ذلك أن الله جل جلاله لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله. وذلك قوله "بظلم" يعني: بشرك، (وأهلها مصلحون)، فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطون الحق (أي العدل) بينهم، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا [هـ]. وأدنى هذا العدل هو العدل الموافق للفترة أي الميزان الفطري. وجاء أيضا تفصيل ذلك في تفسير القرطبي أن معنى وأهلها مصلحون أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب بخس المكيال والميزان، وقوم لوط بالواط؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب [هـ]. فكل هذا فيه أن مخالفة الميزان أهلك في الدنيا من مخالفة الحق، وأن مخالفة الميزان الفطري على وجه الخصوص بالظلم والفساد والمعاصي من أسباب تعجيل سخط الله وعقابه في الدنيا قبل الآخرة.

ومن ذلك ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ [٠]. وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلِ قَامَتْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَمَتَى لَمْ تَقَمْ بِعَدْلِ لَمْ تَقَمْ وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ

(مجموع الفتاوى 28/146). وقد قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في توضيح هذا المعنى: ذلك لأنَّ الظلم هو سبب خراب البلاد وهلاك العباد، فإذا كانت الأمة أو الدولة كافرة ولكنها تحكم بالعدل فيما بينها، هذا العدل الذي يعرفه الناس بفطرتهم، فإذا كانوا يحكمون بذلك فستقوم دولتهم وتستمرُّ مدَّة طويلة، والتاريخ يخجل بهذا [هـ]. وقال الشيخ ابن باز رحمه الله في ذلك: مع الظلم والفساد في الأرض تعمَّ العقوبات، ولا تستقيم الدولة على ذلك، وإنما تستقيم على العدل، دولة عادلة وإن كانت كافرةً تستقيم معها أحوال رعيتهما، ودولة ظالمة وإن كانت مسلمةً تحتلُّ بها الأمور، ولا تنتظم بها الأمور، وقد تحصل الشَّعْناء والعداوة والفتن، نسأل الله العافية [هـ].

ولقد بين رسولنا الكريم ﷺ خطر مخالفة الميزان الشرعي على الحاكم والمحكومين وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني. وجاء في حديث سعد بن تميم أنه قيل: يا رسول الله، ما للخليفة من بعدك؟ قال: مثل الذي لي، ما عدل في الحكم، وقسط في القسط، ورحم ذا الرحم، فمن فعل غير ذلك فليس مِنِّي ولستُ منه (صحيح، تخریج سنن أبي داود، وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله أوجب على الحاكم العدل في الحكم وأن النبي ﷺ تبرأ من الحاكم الظالم. وعن عبد الله بن عمر، قال أقبل علينا رسول الله ﷺ - فقال - «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدرِكوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم ينموا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عنهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحمروا أئمتهم بكتاب الله ويخبروا بما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم». (أخرجه ابن ماجه وصححه الألباني). فكل ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث هي من المخالفات الظالمة التي تخالف الميزان الشرعي، ولكن الرسول ﷺ قدم مخالفة الميزان الفطري

على الميزان الديني. فالجاهرة بالمعاصي وإنقاص الكيل من الأعمال التي تعارض الميزان الفطري والذي يمكن إدراكه بالفطرة السليمة. وهذا فيه بيان خطورة مخالفة الفطرة للناس عموماً مسلمين كانوا أو غير مسلمين. وفي تقديم هذا النوع بيان المبالغة في المعصية. وأما منع الزكاة، ومخالفة أمر الله ورسوله، والحكم بغير ما أنزل الله فهي تخالف الميزان الديني الذي يدرك بالوحي. وهذا فيه بيان خطورة مخالفة أمر الله وبالأخص للمسلمين. فكل هذه الأمور من أسباب البلاء العظيم ومنها الطاعون والأمراض والفقر والجوع وجور السلطان والهوان والفتن. وفيه الدليل على نبوته ﷺ فقد وقع ذلك كما أخبر بعد أن تهاون الكثير من المسلمين وغير المسلمين في أمر الميزان إلا من رحم الله. وبهذا يعرف أن الأمة المسلمة يناهها بمخالفة الميزان الشرعي من العقوبات في الدنيا ما لا يناله غيرها وذلك لما عرفت من الحق وبحسب ما قامت به من الظلم كما هو موضح في الجدول 1.1. وسيأتي بيان ذلك في حال الأمة المسلمة الظالمة.

المخالفة الظالمة	العقوبة	نوع الميزان	الأمة
ظهور الفاحشة والجهر بها	الطاعون والأوجاع	الميزان الفطري	مسلمة أو كافرة
نقص المكيال والميزان	السنين وشدة المؤنة وجور السلطان	الميزان الفطري	مسلمة أو كافرة
منع الزكاة	منع القطر من السماء	الميزان الديني	مسلمة
نقض عهد الله ورسوله	تسلط العدو وأخذه بعض ما في أيديهم	الميزان الديني	مسلمة
الحكم بغير كتاب الله	القتال والفتن بينهم	الميزان الديني	مسلمة

جدول 1.1: مخالفات الميزان الشرعي وعقوباتها بحسب ما أخبر النبي ﷺ

1.19.1 الدولة الكافرة الظالمة الهالكة

الدولة أو الأمة الكافرة الظالمة الهالكة هي التي أرسل الله لها رسولا على وجه الخصوص من الأمم السابقة فلم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان بظلمها رغم قيام الحجّة عليهم. وهي الأشدّ عقوبة في الدنيا سواء كان لها التمكن أو لم يكن، وهذا لأنّ الحجّة قامت عليها ولكن لم تقم الحق ولم تقم أدنى درجات العدل وهو الميزان القطري فلم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال (كالغش في الكيل مثل قوم شعيب)، أو الأعراض (كالزنى واللواط مثل قوم لوط)، أو الدماء (كالجور والقتل بغير حق مثل فرعون)، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان القطري، والتي جاء الأنبياء بتحريمها.

وقد جرت سنة الله في الأزمان الخالية من الأمم الكافرة الظالمة الهالكة المكذبة لرسولها أن ينزل الله عليها عذابه العاجل بمجرد إخراجهم لرسولهم ظلما وعدوانا وكفرا كما قال تعالى: سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ الإسراء. وقد جاء في تفسير ابن كثير أنه أي: هكذا عادت في الذين كفروا برسولنا وأذوهم، يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب [هـ]. وقد تنوع فيهم العقاب كل بحسب حاله كما قال تعالى: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ العنكبوت. وكل هذا فيه العبرة والتذكير من الله جل جلاله لإتباع أمره والإنقياد له لكل من استخلفه الله ولهذا فقد قال تعالى: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْجَرِيمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ يونس. وهذا فيه أن الله جل جلاله ناظر إلى أعمالنا وأعمال الأمم ومجازيها بعدله سبحانه وتعالى.

1.19.2 الدولة المسلمة الظالمة

الدولة أو الأمة المسلمة الظالمة هي التي عرفت الحق بقبولها للإسلام ديناً لها ولم تقم الميزان بظلمها فلم يعمل غالب أفرادها بتعاليم وأوامر الإسلام. فعقوبتها في الدنيا تكون بالهوان وعدم التمكين وهذا لأنها عرفت الحق ولم تعمل به على الوجه المطلوب منها فلم تقم العدل الذي أمرها الله به وهو الميزان الشرعي، أي أن أفرادها، حكما كانوا أو محكومين، لم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال، أو الأعراس، أو الدماء، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري، بالإضافة إلى مخالفة الميزان الديني كمنع الزكاة، أو الحكم بغير ما أنزل الله، وغيرها من الأوامر الدينية التي تخالف الميزان الشرعي، وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني معاً.

فعدل الدولة المسلمة لا يكون فقط بموافقة الميزان الفطري كما هو الحال بالنسبة للدولة الكافرة، وإنما يكون عدل الدولة المسلمة بموافقة الميزان الشرعي، أي الميزان الفطري والديني معاً. وظلم الدولة المسلمة يكون بخالفة الميزان الشرعي وهذا لما عرفت من الحق والدليل قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكَآبِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ آل عمران. وقد جاء في تفسير السعدي أن الله تعالى يخبر عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابهم، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقياداً لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعالهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ النور [هـ].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا يروى أن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت

كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة (مجموع الفتاوى 28/63). والأصح أن يقال: "ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة"، وهذا لان الظلم ينافي الغاية من الإيمان وكجمله وهو بلا شك معصية لله ورسوله والدليل قوله تعالى: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ الحجرات. فالدولة المؤمنة هي التي تطيع الله ورسوله ومن ذلك الحكم بالعدل، فإن خالفت أمر الله فقد خالفت الغاية من الإيمان وتكون أدنى مرتبة في الدين وهي مرتبة الإسلام وليس مرتبة الإيمان. فالله جل جلاله لم يكتب للأمة المسلمة الظالمة التمكن بل كتب لهم الهوان، ووعد سبحانه الذين ءامنوا بالتمكين كما سيأتي بيانه في الأمة المؤمنة العادلة. ولهذا فقد جاء أيضا عن شيخ الإسلام هذا التصحيح فقال في موضع آخر: وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ (مجموع الفتاوى 28/146).

والدولة المسلمة الظالمة ينالها من العقوبات والهوان ما لا ينال غيرها وهذا لأنها عرفت الحق أو انتسبت إليه ولم تعمل به أو تسعى للعمل به فينالها كل العقوبات الخمسة التي ذكرها النبي ﷺ كما تقدم في الجدول 1.1. ومن ذلك الذل والهوان وتسلط العدو لنقض عهد الله ورسوله أي مخالفة أمر الله كالربا والعينة وترك الجهاد فعن ابن عمر، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ "إِذَا تَبَايَعْتُم بِالْعَيْنَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَزِغُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ" (صححه الألباني). وهذا الذل يكون بتسلط الأعداء الكفار عليها وهذا لنقضها عهد الله وهو الميزان الشرعي الذي كلفهم الله به حبا في الدنيا، فهذا كله من أسباب الذل والهوان في الدنيا قبل الأخرة ومن أسباب تعجيل عقاب الله وتسلط الأعداء كما بين ذلك النبي ﷺ فعن ثوبان، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا". فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ

قَالَ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمٌ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ". فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ" (صححه الألباني).

وكل هذا فيه أيضا أن الله يمكن الأمم الأخرى كالدولة الكافرة على المسلمين ولو كانوا ظالمين لهم وهذا لأن المسلمين خالفوا أمر الله الشرعي فيمسهم من الظلم والهوان ما لا يمس غيرهم حتى يرجعوا إلى دينهم الذي كلفهم الله به. ولم يستثنني الرسول ﷺ من الأمم الأخرى وهذا بالعموم فتكون بذلك الأمة الكافرة الظالمة والأمة الكافرة العادلة مسلطة على الأمة المسلمة الظالمة. وهذا إنما لحكمة الله وعدله ورحمته فلو كان التمكن للأمة المسلمة الظالمة لطغت على أمر الله ولتجبرت ولتركت هذا الدين العظيم ظلما وعدوانا وغرورا ولكن حالها كحال الأمم السابقة التي فرحت بما كان لديها من العلم السببي ولتركت أمر الله الشرعي كما هي عادة البشر في من سبق من الذين خلوا من قبل. وهذا لا يكون لأن الله جل جلاله أراد لهذا الدين أن يبقى إلى قبل قيام الساعة. وسيأتي بيان ذلك في دولة الحكم الرشيد وهي الدولة المؤمنة العادلة.

وقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على الدولة المسلمة الظالمة وبالأخص لما يترتب على ذلك من ظلم الذي يخالف الميزان الفطري والذي به يكون فساد المصالح العامة في الدنيا كسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض، والتي هي أشد ظلما في الدنيا من الظلم الذي يكون بخالف الميزان الديني كمنع الزكاة أو الحكم بغير ما أنزل الله من باب الهوى. وقد تقدم معنا أن الله جل جلاله قدم في الدنيا إقامة الميزان بين الناس بالعدل على إقامة الحق في نفوس الناس لتقديم المصلحة العامة على الخاصة. ولذلك فقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على ولادة الأمر المسلمين ولو كانوا ظالمين وعاصين لله ولرسوله ما أقاموا فينا الصلاة وكفى بنا أن نبغضهم في الله على ما عصوا به الله ورسوله كما جاء عن عوف بن

مالك الأشجعي أن النبي ﷺ قال: خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وَلَا تَكْرُ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَارْكَبُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى، قَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهُ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ (صحيح مسلم، وصححه الألباني في تخریج کتاب السنة). للزید من التفاصيل، راجع فصل 7.2 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين.

ولهذا يجب على الدولة المسلمة الظالمة التي تنتسب إلى الإسلام الرجوع لأمر الله جل جلاله بتحكيم شرع الله والذي به تحفظ الدماء والأموال والأعراض بما يرضي الله جل جلاله. وقد قال الشيخ ابن باز رحمه الله: والواجب على كل دولة إسلامية أن تحذر نقمة الله، وأن تبادر بتحكيم شريعة الله، وأن تتقي الله في ذلك، كل دولة تنتسب للإسلام ثم تتساهل في هذا الأمر فقد أتت أمراً عظيماً، وإذا كان تساهلها عن اعتقاد الجواز وإنه لا يجب عليها تحكيم شريعة الله فهذه دولة كافرة كفرة أكبر، نعوذ بالله، إذا اعتقدت أنه لا يلزمها الحكم بشريعة الله، وأنه يجوز لها الحكم بهذه القوانين فهذا كفر أكبر، وردة عظمى [٠] ولا حول ولا قوة إلا بالله. نسأل الله السلامة والعافية (أحوال الحكم بغير ما أنزل الله، التعليقات على ندوات الجامع الكبير).

1.19.3 الدولة الكافرة الظالمة

الدولة أو الأمة الكافرة الظالمة هي التي لم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان بظلمها فيمسها من العقوبات في الدنيا بحسب ما قامت به الحجة عليهم سواء كان لها التمكين أو لم يكن ولكن الله جل جلاله يؤخذها

في الدنيا بخالفة أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري. فعدل الدولة الكافرة يكون بموافقة الميزان الفطري، أي أن أفرادها، حكاما كانوا أو محكومين، لم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال (كالغش في الكيل)، أو الأعراض (كالزنى والواط)، أو الدماء (كالجور والقتل بغير حق)، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري.

وهذا يكون للأمم أو الدول الكافرة الظالمة اللاحقة التي لم يبعث لها رسول على وجه الخصوص فلها من العذاب في الدنيا بحسب ما قامت به عليهم الحجة ومن ذلك قوله تعالى: **مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ۚ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴿١٥﴾ الإسراء. **فَاللَّهُ جَل جلاله يؤاخذهم في الدنيا بخالفهم للميزان الفطري ولهذا فقد عم رسولنا ﷺ العقوبة في المخالفات التي تخالف الفطرة السليمة كما تقدم معنا بيانه في الجدول 1.1 كالجاهرة بالمعاصي والغش في الكيل. ومن حكمة الله وعدله أن الله يسلط الأمم الأخرى أي الأمم الكافرة على الدولة المسلمة الظالمة حتى ترجع إلى دينها ولهذا فقد قال النبي ﷺ: "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ إِلَىٰ قَصْعَتِهَا، أَلَيْسَ قَالَ: وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمُهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ (صححه الألباني). وقد تقدم بيان ذلك في حال الدولة المسلمة الظالمة وكيف تتكالب عليها الأمم الأخرى.**

1.19.4 الدولة الكافرة العادلة

الدولة أو الأمة الكافرة العادلة هي التي لم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان الشرعي بخالفة الميزان الديني ولكن أقامت أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري فتسلم بذلك في الدنيا من العقوبات بحسب ما وافقت به الفطرة وينزل عليها العذاب لمخالفة الحق والميزان الديني بحسب ما قامت به الحجة

عليهم. ولكن الله يجعل لها من التمكن والنصر بحسب ما قامت به من العدل. وهذا لأن عدل الدولة الكافرة يكون بموافقة الميزان الفطري، أي أن أفرادها، حكما كانوا أو محكومين، أقاموا العدل الذي به تحفظ الأموال، أو الأعراض، أو الدماء، وغيرها من الأمور التي توافق الميزان الفطري. وقد تقدم معنا ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ (مجمع الفتاوى 28/146).

وهذا ينطبق اليوم على حال كثير من دول الغرب التي على ما فيها من الكفر بدین الإسلام إلا أن القانون فيها نافذ على جميع مواطنها فتعطى الحقوق وتقام الحدود بدون تفريق على ضعفهم وشریفهم وبما اتفقوا عليه في برلماناتهم التشريعية ولهذا فقد سلموا في غالبهم من جور سلاطينهم عليهم. فن ذلك على سبيل المثال الأنظمة الاجتماعية التي فيها تجمع الأموال من العاملين والشركات كالضرائب فتعطى لفقرائهم ومساكينهم وتمول بها البنى التحتية من خدمات صحية وغيرها والتي فيها صلاح معيشتهم. ومن ذلك أيضا فصل الأجهزة الرقابية والتشريعية عن الجهات التنفيذية لمراقبتها ومحاسبتها ومراجعتها وإنفاذ القانون على من يستغل السلطة لسرقة المال العام أو التلاعب به وإهداره. وكل هذا لما لهم من الأخلاق والمحاسن الإنسانية الموافقة للفطرة من الصدق في القول والأمانة في العمل وهذا لا يخفى على كل من عاش في بلادهم. وقد أدرك ذلك الصحابي عمرو بن العاص بعدما سمع المستورد بن شداد يقول أن النبي ﷺ قال: تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ. فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتُ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ نَحْصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمُسْكِينٍ وَبَيْتٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ. وَأَمْنُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ. وفي رواية أخرى: إِنَّهُمْ

لَأَحْلُمُ النَّاسَ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَجْبِرُ النَّاسَ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، وَخَيْرُ النَّاسِ لِمَسَاكِينِهِمْ وَضُعَفَائِهِمْ (صحيح مسلم).

وكل هذا فيه أن الدولة الكافرة العادلة لها وعليها، فيدم كفرها ويمجد عدلها، ولا يرد عليها كل أمرها، بل يمجّد ما فيها من العدل والإنصاف والمحسن الإنسانية الموافقة للفطرة، ويذم ما فيها من كفر وفسق وعدوان على دين الله ورسوله وهذا ما أوصانا به جل جلاله في كتابه العظيم فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ^ط وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ^ج اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ المائدة. وقال القرطبي في تفسيره: ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه. وقال ابن كثير في تفسيره: وقوله: (ولا يجرمنكم شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا) أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا. للزيد من التفاصيل، راجع فصل 7.1 مسألة العدل مع الكفار.

1.19.5 الدولة المؤمنة العادلة

الدولة أو الأمة المؤمنة العادلة هي التي عرفت الحق بقبولها للإسلام دينا لها وأقامت الميزان الشرعي التي أمرها الله به فعمل غالب أفرادها بتعاليم وأوامر الإسلام بإقامة الحق في أنفسهم وإقامة الميزان الشرعي فيما بينهم. فجزائها في الدنيا يكون بالتمكين على سائر الأمم الأخرى وهذا لأنها عرفت الحق وعملت به على الوجه المطلوب منها فأقامت العدل الذي أمرها الله به وهو الميزان الشرعي، أي أن أفرادها، حكما كانوا أو محكومين، أقاموا العدل الذي به تحفظ الأموال، والأعراض، والدماء، وغيرها من الأمور التي توافق الميزان الفطري، بالإضافة إلى إقامة الميزان الديني كأداء الزكاة، والوفاء بعهد الله ورسوله، والحكم بما أنزل الله، وغيرها من الأوامر الدينية التي توافق الميزان الشرعي، وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني معا.

فالدولة المؤمنة العادلة هي التي آمنت بالحق وهو العلم الصحيح من كتاب الله وسنة نبيه الثابتة والصحيحة وأقامت الميزان الشرعي بالعدل والقسط إتباعاً لأمر الله جل جلاله. وقد وعداها جل جلاله بالتمكين فقال: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ النور. وهذا فيه أن الله نعتهم بالإيمان لأنهم آمنوا بالحق وعملوا الصالحات الموافقة للميزان الشرعي الذي يرضي الله جل جلاله ومن أجل ذلك التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فوافقوا بذلك المعنى الحقيقي لكلمة التوحيد بإقامة الحق في أنفسهم وإقامة العدل فيما بينهم. وهذا بخلاف ما ينشر الآن أن التمكن يأتي بإقامة التوحيد في أنفس العباد فقط دون الإشارة إلى ما يلزم ذلك من إقامة العدل فيما بين العباد وهذا بخلاف الأدلة والبراهين الواضحة من كتاب الله جل جلاله.

والأمة المؤمنة العادلة منصوره بوعده الله عز وجل وبعده الرسول ﷺ إلى آخر الزمان حتى يقبضهم الله جل جلاله قبل قيام الساعة فعن عقبة بن نافع أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لَا تَزَالُ عِصَابَةُ مِنْ أُمَّتِي يَقَاتُلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَأَهْرَبِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَجَلٌ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسَّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ (صحيح مسلم).

والدولة المؤمنة العادلة هي دولة الحكم الرشيد وهي الدولة التي أسسها النبي ﷺ وبدأها بالإصلاح الديني أولاً ومن ثم قام عليها الخلفاء المهديين الراشدين من بعده بالإصلاح الديني والدنيوي معا حيث أقاموا الحق والميزان الشرعي مع الأخذ بالأسباب فكتب الله لهم التمكين وجعلهم ملوكاً في الأرض حتى بلغ الإسلام الهند والصين شرقاً وبلاد الأندلس وأوروبا غرباً. وسيأتي تفصيل ذلك في فصل

الحكم الرشيد.

ولقد وضع النبي ﷺ لنا أسس هذه الدولة التي يحكم فيها بكاتب الله عز وجل وسنة نبيه ويكون فيها الشورى، والرحمة، واللين، والحكمة، والعدل، والرشاد. ففي هذه الدولة يتساوى فيها المسلمون في الحقوق والواجبات الأساسية ومن أعظم ذلك حرمة الدم والمال والعرض وإن اختلفت ألوانهم وأشكالهم فقال ﷺ: يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحرر على أسود، ولا أسود على أحرر، إلا بالتقوى، إلى أن قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، (صحيح، تخریج المسند لشعيب، الصحيح المسند). ومن ذلك أيضا أن المسلمين يتساوون أيضا في الحدود وهذا من عدل الإسلام إذ تطبق الحدود على الشريف والضعيف على حد السواء بدون تفریق فقد صح عن النبي ﷺ قال: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (صحيح مسلم).

وكل هذا فيه أن دولة الحكم الرشيد هي الدولة المؤمنة العادلة التي تقام بإقامة الحق في النفوس وإقامة الميزان بين النفوس مع الأخذ بالأسباب. وهي الدولة التي تحفظ فيها الدماء والأموال والأعراض بما يرضي الله جل جلاله، فيقام فيها الكيل بالقسط، وتؤدى فيها الزكاة، وتقام فيها الحدود، وتنبع فيها أوامر الله جل جلاله من الحكام والمحكومين، كل بما أوتى من الأمانة، وما فرض عليه من العهد والميثاق، فكل ذلك سيئل عليه الجميع يوم الحساب. وهي الدولة التي يحكمها بخيرون في حكمهم مما أنزل الله جل جلاله حتى لا يكون حالهم كحال الدولة المسلمة الظالمة كما حذر من ذلك النبي ﷺ كما تقدم.

1.19.6 ملخص حال الأمم

بالتبع والإستقراء يتبين أن الله يقيم الأمم التي تحكم بالعدل الذي يوافق الفطرة وإن كانت كافرة. فإن في ذلك سلامة من عذاب الله في الدنيا كما تقدم. فإن كانت مؤمنة وتحكم بالعدل كانت حكماً راشداً ووعدها الله بالتمكين في الدنيا والفوز في الآخرة. وإن كانت مسلمة ولا تحكم بالعدل فقد خالفت حكمة الله والغاية من إيمانها الذي يقتضي إقامة العدل والميزان ويصدق فيها قوله تعالى: **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ^ط **وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً** ^ج **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿١٤﴾ الحجرات. وهذا هو حال أغلب أمة الإسلام في يومنا هذا كما هو معروف. فتكون بذلك الأمة الكافرة التي تحكم بالعدل قائمة فوق الأمة المسلمة التي لا تحكم بالعدل. وأما الأمة المؤمنة التي تقيم الحق وأجله التوحيد وما يقتضيه ذلك من إقامة الميزان ومنه العدل بين الناس مع الأخذ بالأسباب تكون هي فوقهم جميعاً كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث. وهذا فيه الحكمة البالغة من الله عز وجل ومنه أن الله لا يرضى لعباده الظلم. ولا يزال الذل والهوان هو حال الأمة المسلمة الظالمة حتى تقيم في غالبها، حكماً ومحكومين، الميزان الشرعي بالعدل الذي أمر الله به. وقد قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** ﴿١١﴾ الرعد.

وبهذا يعلم أن الأمم إنما تقام بإقامة الميزان بالعدل بين الناس فإن تحقق ذلك سلمت سخط الله وعذابه في الدنيا وإن كانت كافرة. فإن لم تقم الميزان بالعدل بين الناس، تكون بذلك قد جنت على نفسها عقاب الله العاجل في الدنيا من فقر وجوع وذل وجور السلطان وإن كانت مسلمة. وأما إن كانت مؤمنة وأقامت الحق مع إقامة الميزان والأخذ بالأسباب كما أمر الله تعالى كانت حكماً راشداً وتحقق لها التمكين في الدنيا والفوز في الآخرة. وأما إقامة التوحيد دون إقامة الميزان وما يقتضيه من

العدل بين الناس فهذا ينافي حكمة الله وأمره الذي بينه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ. ولهذا وجب على المسلمين ودعاتهم الرجوع إلى أمر الله وعدم التهاون في ذلك بالعناية بإقامة الحق وأجله التوحيد وإقامة الميزان وأجله العدل بين الناس على حد السواء، مع الأخذ بالأسباب حتى يكون لهم التمكن الذي وعد الله به. ولمعرفة الأسباب وفهمها وجب علينا العناية بعلم الحساب بحثاً وتطبيقاً سعياً لتحقيق هذه الغاية العظيمة التي أمرنا الله بها، والتي عليها يبنى الحكم الرشيد.

والدولة المؤمنة العادلة لا تأتي بالعواطف والأوهام، إنما تكون عن علم وإخلاص في القول والعمل وصبر على أقدار الله ويقين بوعده عز وجل. وهذا يتطلب الجهاد في سبيل الله جهاد النفس وجهاد الغير سعياً لإقامة الحق والميزان الشرعي وليس لإبتغاء السلطة أو العلو في الأرض وإنما لنشر الحق والعدل الذي أمر الله به. وهذا لا يقوم به إلا من أخلص لله حقاً وباع نفسه وماله لله عن صدق ورضي أن يدخل مع الله في هذه التجارة الربحية ولهذا فقد قال جل جلاله: **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التوبة.** وهذه التجارة مع الله لإبتغاء مرضاته والسعي لبلوغ جنته التي وعد المتقين وللنجاة من عذابه وسخطه يوم الحساب. ولهذا يأتي بيان يوم الحساب قبل بيان الحكم الرشيد حتى يعلم الإنسان ما فيه نجاته في ذلك اليوم العظيم، وأن الغاية ليست الحكم الرشيد أو الخلافة الراشدة في حد ذاتها كما يتغنى بذلك الكثير من الواهمين، إنما الحكم الرشيد والخلافة الراشدة هي وسيلة لغاية عظيمة وهي إقامة الحق والميزان مع الأخذ بالأسباب كما بين جل جلاله ذلك في كتابه العظيم.

1.20 الحساب من صور الميزان والجهل به من الأمية

تقدم معنا أن الميزان يأتي بمعنى العدل، ولكن الميزان له صور مختلفة. فعلى سبيل المثال الكيل المعروف الذي به توزن الأشياء هو صورة من صور الميزان ولكنه ميزان حسي. وكذلك الحساب فهو أيضا صورة من صور الميزان ولكنه ميزان معنوي، أي أنه لا يلزم أن يكون في صورة حسية معينة ولكن قد يجري الحساب تكمليا أو ذهنيا أو باستخدام الآلة الحاسبة أو أجهزة الكمبيوتر أو باستخدام مجموعة كبيرة من الأجهزة المعقدة. وهذا الحساب يتنوع ويتدرج من السهل والبسيط إلى الصعب والمعقد. والحساب حاله كحال الكيل يبنى على الميزان والوزن الصحيح ويجب الوفاء به والصدق فيه فهذا من الإصلاح والعدل الذي أمر الله به والذي فطر الناس عليه كما تقدم بيانه في الميزان الشرعي بأقسامه. وعليه فإن الحساب لا يكون صحيحا إلا بالقسط والعدل كما في الكيل الوزن تماما. ومن رحمة الله أنه فطر الناس على هذا وجعل لهم كل ما يحتاجونه من عقل وسمع وبصر لفهم الحساب والعدد ولينبوا عليه مصالحهم الدينية والدنيوية. ولهذا فإن الآيات الشرعية التي تأمر بالعدل في الكيل وإقامة الميزان بالقسط فهي بلا شك تشمل الحساب وهو الميزان المعنوي كما هو الحال مع الكيل وهو الميزان الحسي. والغش في الحساب من مخالفة الميزان ومن الظلم والفساد الذي لا يرضى الله به ومن أسباب تعجيل سخط الله في الدنيا قبل الآخرة.

وبهذا يعلم أن الحساب الصحيح يكون سبيلا إلى الحكم بالعدل والحكم الرشيد. فإن وافق الحساب الميزان الفطري (أي الفطرة السليمة) كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في العاجلة (أي في الدنيا). ومثال ذلك أن يكون حساب البائع حسابا صحيحا مع زبائنه بدون غش أو نقص. وإن وافق الحساب الميزان الديني كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في الآخرة. ومثال ذلك حساب الموارث والزكاة

الحساب الصحيح. وإن وافق الحساب الميزان الشرعي (أي الميزان الفطري والميزان الديني معا) كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في الدنيا والآخرة معا. ومثال ذلك إخراج الزكاة صحيحة وكاملة من تجارة لا غش فيها ولا ظلم. وفي غالب الأحيان يكون الحساب الموافق للميزان الديني موافقا أيضا للميزان الفطري وهذا لأن الدين جاء موافقا للفطرة ومكملا لها. ولهذا كان الحساب الصحيح لإقامة الحق والميزان الشرعي من بنیان الحكم الرشيد. وعليه يكون علم الحساب من الدين بالضرورة وليس بخلاف ذلك إذ يتعدى إقامة الميزان حق إقامته من دون حساب صحيح. وهو أيضا مفتاح العلوم السببية، إذ يتعدى معرفة الأسباب وفهمها من دون حساب صحيح.

ومن أعظم البلايا في زماننا هذا أن المسلمين قد أضاعوا هذا العلم العظيم ظنا منهم أنه ليس من الدين بعد أن كانوا روادا فيه ووضعوا أسسه وقواعده في زمن هارون الرشيد فسبقوا بذلك كل الأمم الأخرى كما سيأتي. فاعتنت وتسابقت وتهالفت عليه الأمم الأخرى وكان سببا في نهوضها وإزدهارها بل وأيضا تسلطها على أمة الإسلام. فتضييع علم الحساب من الأمية التي جاء الإسلام بالحث على خلافتها من طلب العلم ونشره وإقامة الحق والميزان. فالأمية لا تكون فقط بعدم القدرة على القراءة والكتابة كما هو شائع، وإنما أيضا بعدم القدرة على الحساب. ومما يؤكد هذا الطرح قوله ﷺ عندما سأل عن عدد الأيام في الشهر فقال ﷺ: إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا. يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ" (صحيح البخاري). فجعل ﷺ الجهل بعلم الحساب في زمانه من الأمية.

ولهذا جاءت الشريعة بالحث أولا على القراءة ومن ثم الحساب. فكان أول ما أنزل الله "اقرأ" وفيه الحث لأمة الإسلام على تعلم القراءة والكتابة وطلب العلم ونشره. يقول تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ العلق. ومن ثم جاء الحث على التأمل في آيات الله الكونية في مواضع كثيرة ليس فقط لمجرد التفكير في خلق الله ولكن أيضا لتعلم العدد والحساب كما جاء في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يونس. ولهذا فإن كل إنسان لم يتعلم الحساب مع القراءة والكتابة يكون أميا كما بين ذلك النبي ﷺ. والله حث هذه الأمة الأمية في كتابه العظيم على العلم الذي يتأتى بالقراءة والكتابة حتى تقيم الحق وعلى تعلم العدد والحساب حتى تقيم الميزان الشرعي بالعدل والقسط.

1.21 الحساب الصحيح هو الميزان

والحساب الصحيح لا يقام إلا بالميزان فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى خَيْرِ خِفَاءِهِ بِمِزَانٍ فَقَالَ: «أَكُلْ تَمْرَ خَيْرٍ هَكَذَا؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثِ فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ بَعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ ابْتَغِ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيْبًا». وَقَالَ: «فِي الْمِيزَانِ مِثْلُ ذَلِكَ» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ). وهذا فيه حرص النبي ﷺ حيث انه من المعلوم أن من أخذ صاعا اضافيا لا يثبت قيمة البيع. فيكون من أخذ صاعين بدل صاع فقد اشترى بنصف قيمة ما باع، بينما من أخذ ثلاثة بدل اثنين فقد اشترى بثلثي قيمة ما باع. وهذا من الظلم الذي لا يقع إلا خطأ أو جهلا أو غشا. فأخبر النبي ﷺ أن هذا بخلاف الميزان وهو الحساب الصحيح في البيع والشراء، بل ونهى عن ذلك وأمر بأخذ القيمة عند البيع ومن ثم الشراء حتى تثبت القيمة. وفيه أيضا أن الرسول ﷺ سمي الحساب الصحيح ميزانا في قوله "في الميزان مثل ذلك". وهذا

فيه دليل على نبوته ﷺ فهو أُمِّي لا يحسب ولكن لا ينطق إلا بالحق كما أخبر ذلك الله عز وجل في كتابه العظيم: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ النجم.

ولهذا فإن الحساب الصحيح يبني على التقدير العددي والوزن وهو ما نعرفه اليوم بالتساوي (أي علامة = في الحساب). فقد سماه الخوارزمي رحمه الله تعالى بالجبر والمقابلة بحيث يبني الحساب على التساوي بين المتغيرات لجبر ما اختل من الميزان، عليه يمكن حساب ما جهل منها. فقد قال ابن تيمية رحمه الله عن هذا: وأما حساب الفرائض ومعرفة أصول المسائل وتصحيحها والمناسخات وقسمة التركات، وهذا الثاني كله علم معقول يُعلم بالعقل، كسائر حساب المعاملات وغير ذلك من الأنواع التي يحتاج إليها الناس [٠] ثم قد ذكروا حساب المجهول الملقب بحساب الجبر والمقابلة في ذلك، وهو علم قديم [٠] أول من عرف أنه أدخله فيها محمد بن موسى الخوارزمي. وبعض الناس يذكر عن علي بن أبي طالب أنه تكلم فيه، وأنه تعلم ذلك من يهودي، وهذا كذب على علي (مجموع الفتاوى 9/214). ويقول ابن تيمية فيه أيضاً: وكذلك كثير من متأخري أصحابنا يشتغلون وقت بطلانهم بعلم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهندسة ونحو ذلك، لأن فيه تفريحاً للنفس، وهو علم صحيح لا يدخل فيه غلط (مجموع الفتاوى ج 9/ص 129). وكل هذا فيه اهتمام السلف بهذا العلم العظيم في أوقات فراغهم رغم إنشغالهم بالأمور العظيمة الأخرى في بيان الحق ورد البدع والشبهات التي عصفت في ذلك الزمن كعلم الكلام والفلسفة التي تخالف صريح كتاب الله جل جلاله وسنة نبيه ﷺ.

والناس يتفاوتون في قدراتهم الحسابية كل بحسب إجهاده وبما أودعه الله جل جلاله فيهم من إدراك وعقل. ولهذا فإن حساب الإنسان يكون بحسب إدراكه وعقله وتقديره. وهذا فيه أن الإنسان قد يخفى عليه العديد من الأمور وقد يتخلل حسابه النقص وبالأخص في الأمور التي يصعب حسابها. ولكن الله جعل الناس متوافقين في الحساب بفطرتهم. والله جل جلاله له كمال العدل في حسابه

وهذا لأن تقديره تقدير كامل لا نقص فيه لأن الله هو العليم بكل شئ والقادر على كل شئ. وفي معرفة حساب الله العديد من الفوائد منها أن الله عدل وقائم بالقسط في الدنيا والآخرة، وفي الميزان الكوني والميزان الشرعي. وفي معرفة ذلك الإستعداد ليوم الحساب الذي فيه يحاسب الله المكلفين كما سيأتي بيانه في الفصل القادم. وفي هذه المعرفة أيضا الترغيب في إقامة الحق والميزان مع الأخذ بالأسباب والتي بها يمكن تحقيق الحكم الرشيد كما سيأتي بيانه في الفصل الذي يلي الفصل القادم.

حساب الله

2.1 مقدمة

هذه هي المقدمة للفصل الأول.

2.2 صفة العد والحساب

العد والإحصاء والحساب كلها من صفات الله جل جلاله، وهذا من كمال عدله سبحانه حتى يعطي لكي ذي حق حقه يوم الحساب. ولقد أثبت سبحانه في مواضع كثيرة في كتابه العظيم أنه سبحانه أحصى كل شئ عدداً، وأنه سبحانه سريع الحساب كما يليق بجلاله بدون تشبيه أو تكيف أو تعطيل أو تمثيل. ومن ذلك أن الله جل جلاله قدر المقادير كلها وعلها عدداً واحصائها وحسابها

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ
وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ
بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التوبة

2.3 التجارة مع الله في الدنيا

2.4 يوم الحساب

2.4.1 البعث

2.4.2 الحساب يبدأ عند الميزان وقبل الجزاء

نقل القرطبي أن الحساب يكون قبل الميزان وفيه تعرض الأعمال فقط قبل أن توزن على الميزان وهذا لا يصح. لأن الحساب لا يكتمل إلا بعد وزن الأعمال كلها كبيرها وصغيرها وعدّها وجمعها. ولهذا فإن الحساب يبدأ مع بداية وزن الأعمال وينتهي عند الانتهاء من وزنها وعدّها وجمعها. يبدأ الحساب مع وزن الأعمال وهنا تعرض الأعمال وتوزن على الميزان كلها صغيرها وكبيرها حتى يحسب حسابها الحساب الكامل والوافي الذي لا ظلم فيه، وبناءً على الحساب الكلي يعطى الجزاء إما جنة وإما نار. ومن عدل الله جل جلاله أنه سبحانه يقضي في المظالم بين الناس يوم الحساب ولهذا فقد قال النبي ﷺ: مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ صَاحِبِهِ حُمِّلَ عَلَيْهِ (صحيح البخاري). ومن ذلك أيضاً أن الله يجزي عباده كل بحسب ما دل عليه من العمل فعن جرير بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ (صحيح مسلم).

العجائب:

إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكُرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كِتَابِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عَذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ بَطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزَنَاكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَقَالَ: فَإِنَّكَ لَا تَظْلُمُ، قَالَ: فَتَوَضَّعَ السَّجَلَاتُ فِي كَفِّهِ، وَالْبَطَاقَةُ فِي كَفِّهِ فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَتَقَلَّتِ الْبَطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ (صحيح الترمذي، صحيحه الألباني)

الجزاء إما جنة أو نار

الجنة

مائة درجة

وهي مائة درجة كما جاء ذلك عن النبي ﷺ حيث قال: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا يُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: إِنْ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةُ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ -أُراه- فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ. (صحيح البخاري).

أعلى مراتب الجنة هي الفردوس الأعلى كما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ وَهُوَ صَحِيحٌ: إِنَّهُ لَمْ يَقْبِضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ، وَرَأْسُهُ عَلَى نَخْدِي غُضْبِي عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ

الأعلى فَقُلْتُ: إِذَا لَا يَخْتَارُنَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ، قَالَتْ: فَكَانَتْ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى (صحيح البخاري). فَعَرَفْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الرِّسُولَ ﷺ أَوْرَى مَقْعَدَهُ فِي الْجَنَّةِ فَاخْتَارَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى قَبْلَ أَنْ تَقْضَى رُوحُهُ ﷺ.

وَأَدْنَاهُمْ مَرْتَبَةٌ هُوَ آخَرُ رَجُلٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَهُوَ آخَرُ رَجُلٍ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ قَالَ: إِنِّي لِأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ: رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَيًّا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهَا أَنَّهَا مَلَأَتْ، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلَأَتْ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، قَالَ: فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهَا أَنَّهَا مَلَأَتْ، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلَأَتْ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ؛ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ إِنَّ لَكَ عَشْرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا - قَالَ: فَيَقُولُ: أَسْخَرُ بِي - أَوْ أَتَضَحَّكُ بِي - وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: فَكَانَ يُقَالُ: ذَلِكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً (صحيح البخاري، صحيح مسلم واللفظ له).

الحكم الرشيد

3.1 مقدمة

قال تعالى:

يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [ص: 26]

تفسير ابن كثير:

هذه وصية من الله - عز وجل - لولاءة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلووا عن سبيله وقد تواعد [الله] تعالى من ضل عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد ، حدثنا مروان بن جناح ، حدثني إبراهيم أبو زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول ، وقرأت القرآن وفقهته ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل

في أمان . قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود ؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون) الآية .

وقال عكرمة : (لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا .

وقال السدي : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب .
وهذا القول أمشى على ظاهر الآية فالله أعلم .

3.2 أركان الحكم الرشيد

يقام الحكم الرشيد على ثلاثة أركان وهي: (1) إقامة الحق بالعلم الصحيح، (2) إقامة الميزان الشرعي بالعدل والقسط، (3) الأخذ بأسباب القوى كالحديد وما يلزم ذلك من علوم كالحساب والطب وغيرها من العلوم التي تكمن المسلمين من دحر الأعداء ونشر الحق ونصرتهم. فهذا كله من نصر الله ورسله وقد وعد سبحانه بنصر من ينصره كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ محمد.

وبهذه الأمور الثلاثة التي يبنى عليها الحكم الرشيد يكون التمكن الذي وعد الله به كما ذكر سبحانه في قصة ذي القرنين في قوله تعالى: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ الكهف. وقد بين معنى ذلك الشيخ العثيمين رحمه الله أن معنى "من كل شيء سببا" أن الله أتاه كل الأسباب التي بها يكون التمكن في الأرض من قوة السلطة وتمام الملك فانتفع بما أعطاه الله

من الأسباب. فهذا التمكن جاء بتسخير الله وهذا لأن ذي القرنين أخذ بالأسباب التي أعطاها الله له مع إقامة الحق وإقامة العدل كما في قوله تعالى: قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ الكهف. وقد جاء في تفسير السعدي رحمه الله أن هذا يدل على كونه من الملوكة الصالحين الأولياء، العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد، بما يليق بحاله [هـ]. وقد أثبت سبحانه له التمكن والرشد لما له من الخبرة في إتباع الأسباب كما في قوله تعالى: كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ الكهف. ومعنى ذلك أي: أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة كما جاء في تفسير السعدي. ومن ذلك أنه كان لديه من الأسباب العلية ما يمكنه من فهم العديد من العلوم التي تمكنه من الانتقال إلى مشارق الأرض ومغاربها وفهم اللغات الأخرى، ومن ذلك ما فقه به ألسنة أولئك القوم (الذين لا يفقهون قولاً) الذين اشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج [١] إفسادهم في الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركاً لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجر، وشكر ربه على تمكنه واقتداره [هـ]. فلم يطلب منهم إلا أن يعينوه على حمل زير أي قطع الحديد ووضعه في مكانه بين الجبلين وإشعال النار له بالمنافخ الشديدة والآلات العظيمة لإذابة النحاس حتى يكون سائلاً فيصبه عليها ليستحكم السد استحكاماً هائلاً يعجز يأجوج ومأجوج على الصعود فوقه فضلاً عن ثقبه.

وقد علم ذا القرنين أن كل ذلك من فضل الله عليه حيث قال تعالى: قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ الكهف. وما أجمل ما أورده السعدي في تفسيره هذه الآية حيث قال: فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليا

وقال: هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي أَي: من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ التل. بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم شرا وبطرا. كما قال قارون، لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، قال: قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي الْقَصَص.

وقد علم أيضا ذا القرنين بما لديه من الخبرة بأسباب الحديد وما قد يطرأ عليه من صدى وتأكل بعد زمن أنه سيأتي يوم وينهار هذا السد العظيم ويخرج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان كما في قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ الكهف. وجاء في تفسير السعده رحمه الله أن قوله: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي أَي: لخروج يأجوج ومأجوج جَعَلَهُ أَي: ذلك السد المحكم المتقن دَكَّاءَ أَي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا [هـ]. ولهذا فقد أخبر سبحانه بوقوع ذلك لا محالة في قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ الأنبياء. وقد قال السعدي رحمه الله: أنه في آخر الزمان، ينفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف، الذي ذكره الله من كل من مكان مرتفع، وهو الحذب ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما لبذواتهم، وإما لما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلمون عليهم في الدنيا، وأنه لا يد لأحد بقتالهم.

وكل ما تقدم فيه أن ذا القرنين لم يكن فقط يأخذ بالأسباب وإنما كان يقيم الحق والعدل مع الأخذ بالأسباب والعلم بها وذلك من فضل الله عليه وتوفيقه له رحمه الله تعالى ورضي عنه. وقد

قال عنه الشيخ ابن باز رحمه الله: ذو القرنين ملك عظيم صاحب خير، وإحسان، وإصلاح، واختلف الناس في نبوته، والمشهور أنه ملك صالح. وفي موضع آخر رجع الشيخ ابن باز رحمه الله أن ذا القرنين نبيا من الأنبياء لأنه كان يتبع أمر الله في الأرض وظاهر الآيات أنه كان يتلقى هذه الأوامر والتوجيهات من ربه جل جلاله وهذا شأن النبي.

3.3 شروط الحكم الرشيد

ولقد وضع النبي ﷺ لنا أسس هذه الدولة التي يحكم فيها بكاتب الله عز وجل وسنة نبيه ويكون فيها الشورى، والرحمة، واللين، والحكمة، والعدل، والرشاد. ففي هذه الدولة يتساوى فيها المسلمون في الحقوق والواجبات الأساسية ومن أعظم ذلك حرمة الدم والمال والعرض وإن اختلفت ألوانهم وأشكالهم فقال ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَلَبَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَبَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ (صحيح، تخریج المسند لشعيب، الصحيح المسند).

ومن ذلك أيضا أن المسلمين يتساوون أيضا في الحدود وهذا من عدل الإسلام إذ تطبق الحدود على الشريف والضعيف على حد السواء بدون تفریق فقد صح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أَنَّ قُرَيْشًا أَهْمُهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غُرُورَةِ الْفَتْحِ،

فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأُتِيَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاخْتَطَبَ، فَأُتِيَ عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقُطِعَتْ يَدُهَا. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَسَنْتُ تَوْبَتَهَا بَعْدُ، وَتَزَوَّجْتُ، وَكَانَتْ تَأْتِينِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (صحيح مسلم).

3.4 واجبات الحكم الرشيد

تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة:

لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ بِفَعْلَتُهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ النَّاسُ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ

قال الشيخ ابن باز: فترك ﷺ نقض الكعبة وإدخال حجر إسماعيل فيها خشية الفتنة، وهذا يدل على وجوب مراعاة المصالح العامة وتقديم المصلحة العليا، وهي تأليف القلوب وثبيتها على الإسلام على المصلحة التي هي أدنى منها وهي إعادة الكعبة على قواعد إبراهيم.

الرحمة:

قال ﷺ: مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُ، وَمَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُغْفَرْ لَهُ (صحيح الترمذي).

التيسير:

قال ﷺ: يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا (صحيح البخاري).

إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَا يُشَادُّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَ الرُّوحَةِ وَثِيءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ الرَّاي: أبو هريرة | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الجامع الصفحة أو

الرقم: 1611 | خلاصة حكم المحدث: صحيح

الأمانة: قال ﷺ: مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رِعْيَةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ، وَهُوَ غَاشٌّ لِرِعْيَتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ (صحيح الجامع وصححه الألباني). وفي رواية: مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رِعْيَةً، فَلَمْ يَحْطِهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَاحَةَ الْجَنَّةِ (صحيح البخاري).

النصيحة من الرعية:

وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ.

3.5 الحكم الرشيد في زمن الصحابة

البيان الواضح لسنتين الخلافة الراشدة

قال صلى الله عليه وسلم

خِلاَفَةُ النَّبِيِّ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمَلِكَ مَنْ يَشَاءُ

الراوي: سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الجامع

| الصفحة أو الرقم : 3257 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

قال سعيدٌ: قال لي سَفِينَةُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ: أبو بكرٍ سنتين، وعمرُ عشرًا، وعثمانُ اثنتي عشرة، وعليُّ كذا، قال سعيدٌ: قلتُ لسَفِينَةَ: إِنَّ هَؤُلَاءَ يزعمون أَنَّ عليًّا لم يكن بخليفةٍ، قال: كَذَبْتُ أَسْأَتَهُ بني الزرقاء - يعني: بني مروانَ - الراوي: سَفِينَةُ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث: الألباني

| المصدر: صحيح أبي داود الصفحة أو الرقم: 4646 | خلاصة حكم المحدث: حسن

وجاء في تفسير ابن كثير وجاء في تفسير القرطبي ان الشعبي قال: كان بين عمر وأبي خصومة ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت ، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته ، فقال عمر : هذا أول جورك ، أجلسني وإياه مجلسا واحدا ، فجلسا بين يديه .

قال أبو بكرٍ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يُعْصِمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمُ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا إِلَّا يَوْشِكُ أَنْ يُعْصِمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ الرَّاوي: أبو بكر الصديق | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح

أبي داود الصفحة أو الرقم: 4338 | خلاصة حكم المحدث: صحيح

لما بويع أبو بكر بالخلافة بعد بيعة السقيفة تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أربح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عصمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله

ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

(يا أيها الناس، قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أئتموني على حَتَّى فَأَعِينُونِي، وإن أئتموني على باطل فسدّدوني. أطيعوني ما أطيعتُ الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إنَّ أقوامَ عندي الضعيف حتى آخذ الحقَّ له، وأضعفكم عندي القويُّ حتى آخذ الحقَّ منه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم).

أنَّ رجلاً، قال لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : رأيتُ كأنَّ ميزاناً دُليَّ مِنَ السماءِ، فوُزِنَتْ بأبي بكرٍ فرَجَحَتْ بأبي بكرٍ، ثم وُزِنَ أبو بكرٍ بعمرٍ، فرَجَحَ أبو بكرٍ، ثم وُزِنَ عمرُ بعثمانَ، فرَجَحَ عمرُ، ثم رُفِعَ الميزانُ، فاستهلَّها رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خلافةَ نبيِّه، ثم يؤتي اللهُ الملكَ مَنْ يشاءُ

الراوي : سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : البوصيري | المصدر : إتحاف الخيرة المهرة الصفحة أو الرقم : 11 / 5 | خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح | أحاديث مشابهة | شرح حديث مشابه

أنَّ رجلاً قال : يا رسولَ الله رأيتُ كأنَّ ميزاناً دُليَّ مِنَ السماءِ فوُزِنَتْ فيه أنت وأبو بكرٍ فرَجَحَتْ بأبي بكرٍ ثم وُزِنَ فيه أبو بكرٍ وعمرُ فرَجَحَ أبو بكرٍ بعمرٍ ثم وُزِنَ فيه عمرُ وعثمانُ فرَجَحَ عمرُ بعثمانَ ثم رُفِعَ الميزانُ فاستلَّها يعني تأولها ثم قال : خِلافةُ نبيِّه ثم يؤتي اللهُ الملكَ مَنْ يشاءُ

الراوي : أبو بكرة نفع بن الحارث | المحدث : الألباني | المصدر : تخریج کتاب السنة الصفحة أو الرقم : 1135 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

3.6 الحساب في زمن الحكم الرشيد

البحث والعناية بعلم الحساب هو غاية جلييلة ومهمة عظيمة أعتنى بها المسلمون اللاحقون في زمن الخليفة الراشد هارون الرشيد التي أسس دار الحكمة في بغداد العراق حتى أصبح المسلمين في ذلك الوقت روادا في علم الحساب والذي كان مفتاحا لهم لشتى العلوم الأخرى حتى عرف ذلك الزمان بالعصر الإسلامي الذهبي. ومن أبرز من بحث وألف في علم الحساب هو العالم الفذ محمد بن موسى الخوارزمي رحمه الله تعالى والذي وصل صيته أقطاب الأرض حتى دخل أسمه معاجم وقواميس كافة اللغات الأخرى. فاللوغرتميات جاءت من الترجمة اللاتينية لإسمه وهو ما عرف عند العرب المتأخرين بالخوارزميات. وهذا مفهوم يبنى عليه كافة الحسابات المركبة والمعقدة التي نراها اليوم من أنظمة الحساب والمنطق بشتى أنواعها بما فيها أنظمة الصواريخ والطيران وحتى أنظمة الذكاء الاصطناعي. وقد ألف الخوارزمي كتابه "المختصر في الجبر والمقابلة" وكان هذا الكتاب نافعا للمسلمين وغيرهم وهو أساس تقدم البشرية في شتى المجالات إلى يومنا هذا. ولهذا سمي علم الموازنة والمقابلة بعلم "الجبر" كما سماه الخوارزمي بذلك وتمت إضافة كلمة "الجبر" أيضا إلى كافة معاجم اللغات الأخرى. ويعتبر الخوارزمي إلى يومنا هو مؤسس علم الجبر والحساب والخوارزميات ومن أهم علماء الحساب في تاريخ البشرية.

وللأسف فقد غاب وغيب على أغلب المسلمين في زماننا هذا أهمية ميراث الخوارزمي في علم الجبر والحساب. وهو ميراث حري بنا جمع شتاته وإعادة بناء أركانه لتقوم الأمة بالميزان الذي أمرنا الله به. فقد جهل الكثير من المسلمين ميراث الخوارزمي حتى بخس قدره ونسي علمه فكان بين مفرط أو مدلس. ومن ذلك ضياع كتابه في الجبر والمقابلة من المسلمين حتى تمت طباعة أول نسخة عربية منه في عام 1939م (1357هـ) بناء على النسخة الأصلية الوحيدة التي سرقت من مصر ونقلت إلى بريطانيا

والتي يرجع تاريخها إلى عام 1439م (843هـ) أي بعد وفاة الخوارزمي بحوالي 500 عام شمسية. ليرجع لنا كتاب الخوارزمي بعد حوالي ألف عام من تأليفه. وفي كل هذه الأعوام ترجم كتابه إلى شتى اللغات ومنها الإنجليزية والألمانية والفرنسية وأصبحت مرجعا لجميع الحضارات الأوروبية وغيرها. ليتفاجأ المسلمون بوجود كلمات عربية في هذه الثقافات ومنها algorithms والتي تعني الخوارزميات وكلمة algebra وهي الجبر في معجم اللغة الإنجليزية على سبيل المثال لا الحصر.

ومن التدليس الذي تعرض له الخوارزمي في تقديم كتابه هو نسبة عمله إلى الحضارة المصرية في طرح مخالف للطرح الذي وضعه الخوارزمي في كتابه. وهذا ليس إلا إحقاقا للحق ولا يجب أن يحمل هذا على محمل الإستنقاص لمن نقل هذا العمل لنا تقديما وتعليقا فجزاهم الله خير الجزاء. ومن التدليس أيضا طرح كتابه في الحساب مجردا من الغاية التي كتب لها ومنه عدم ذكر سبب تأليف كتابه في الجبر والذي كان في الأساس سعيًا منه رحمه الله لتحقيق الحكم الرشيد بناء على الحساب الصحيح في الميراث والبيع والشراء والكرء وما يتعلق بذلك من حساب المسافات والأرض. ولتبيين طرح الخوارزمي نضع مقدمة كتابه رحمه الله والتي جاء فيها:¹

¹ مع تصرف يسير من حذف لكلمات التي تخالف السياق وفي الغالب قد يظن انها أخطاء خلال النسخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب وضعه محمد بن موسى الخوارزمي افتتحه بأن قال:

الحمد لله على نعمه بما هو أهله من محامده التي بأداء ما افترض منها على من يعبد من خلقه يقع اسم الشكر ويستوجب المزيد إقرارا بروبوته وتدللا لعزته وخشوعا لعظمته. بعث محمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالنبوة على حين فترة من الرسل نورا من الحق ودروس من الهدي فبصر به من العمى واستنقذ به من الهلكة وكثر به بعد قلة وألف به بعد الشتات.

تبارك الله ربنا وتعالى جده وتقديست أسمائه ولا إله غيره، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم. ولم تزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب مما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة نظرا لمن بعدهم واحتسابا للأجر بقدر الطاقة ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره وذكره ويبقى لهم من لسان صدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكفلونه من المؤونة ويحملونه على أنفسهم من المشقة في كشف أسرار العلم وغامضه. إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجا قبله فوريته من بعده. وإما رجل شرح مما أبقي الأولون ما كان مستغلقا فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرب مأخذه. وإما رجل وجد في بعض الكتب خلا فلا شعثه وأقام أوده وأحسن الظن بصاحبه غير راد عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه.

وقد شجعتني ما فضل الله به الامام المأمون أمير المؤمنين مع الخلافة التي حاز له إرثها وأكرمه بلباسها وحلاه بزينتها. من الرغبة في الأدب وتقريب أهله وإدنائهم وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبهما وتسهيل ما كان مستوعرا. على أن ألفت من كتاب الجبر والمقابلة كتابا مختصرا حاصرا للطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجارتهم. وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوه وفنونه. مقدما لحسن النية فيه وراجيا لأن ينزله أهل الأدب بفضل ما استودعوا من نعم الله تعالى وجليل آلائه وجميل بلائه عندهم منزلة وبالله توفيتي في هذا لا في غيره عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين.

وعليه يعلم أن الخوارزمي رحمه الله إنما ألف كتابه هذا لتوضيح علم الحساب الصحيح الذي يحتاج إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم. فقد إفتح الخوارزمي رحمه الله كتابه بالبسملة متبعا سنة الأنبياء في ذلك. وكان رحمه الله حريصا وراجيا بأن يعتنى أهل الأدب بهذا الكتاب ويعطونه حقه وينزلونه منزلته لما علم ما فيه من أسس وقواعد لا غنى عنها في علم الحساب الصحيح. وختم مقدمته سائلا الله التوفيق في ذلك ومتوكلا عليه. وبهذا يتبين حسن مقصد الخوارزمي من تأليف كتابه فنسأل الله العلي العظيم أن يرحمه رحمة واسعة وأن يرفع قدره في الجنة وأن يجزيه عنا خير الجزاء.

فبدأوا بالعناية بعلم الحساب وجمع مؤلفاته من كافة أقطاب الدنيا فعكفوا على ترجمتها حتى فهموها وعقلوها وعرفوا ما شابهها من خطأ ونقصان. فأسسوا نظام الأرقام الذي نعرفه اليوم فقسموا الأرقام إلى أرقام فردية وأسسوا علم الجبر وحساب المثلثات وغيرها من علوم الحساب بشكل لم تعرفه البشرية من قبل. وكان ذلك سببا في تحقيق الحكم الرشيد في المعاملات والبيع والشراء والكراء. فكان علم الحساب مفتاحا في تطور المسلمين في شتى مجالات الدنيا ومنها مجال الهندسة والطب في العصر الإسلامي الذهبي.

سيرة هارون الرشيد المخيدان

الفوزان

كلام الفوزان في المأمون غرر به المعتزلة

ومن الحكم الرشيد مصالحة الكفار لدرء المفاسد كما في العهد المكي وفيه ايضا ان النجاشي لم يكن مسلم ولا يظلم عنده أحد فهو حقق العدل

3.7 عودة الحكم الرشيد في آخر الزمان

قال: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلُّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْتُمُونَ. قالوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قال: فُوا بَبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ.

يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ الْمَالَ وَلَا يَعُدُّهُ. الراوي : أبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم الصفحة أو الرقم: 2913 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]
مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ يَخْشَى الْمَالَ حَتَّى، لَا يَعُدُّهُ عَدَدًا. وفي رواية ابن حجر: يَحْشَى الْمَالَ. الراوي : أبو سعيد الخدري | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم : 2914 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

3.8 معادلات

فيما يلي مثال على معادلة رياضية:

$$E = mc^2 \quad (1)$$

ومثال آخر على معادلة معقدة:

$$\int_0^{\infty} e^{-x^2} dx = \frac{\sqrt{\pi}}{2} \quad (2)$$

3.9 نص الفصل الأول - الصفحة الثانية

هذه الصفحة الثانية للفصل الأول تحتوي على نص إضافي لتوضيح كيفية تنسيق النصوص في كتب اللاتكس باللغة العربية.

3.10 نص الفصل الأول - الصفحة الثالثة

هذه الصفحة الثالثة للفصل الأول تحتوي على المزيد من النصوص لاختبار تقسيم الصفحات وظهور
الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

علم الحساب

4.1 مقدمة

هذه هي المقدمة للفصل الأول.

4.2 أمثلة حسابية من القرآن والسنة

4.2.1 مكوث أهل الكهف

يقول جل جلاله عن مدة مكوث أهل الكهف في سورة الكهف: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ الكهف. فقد يسأل السائل لماذا جاء النص مع "وازدادوا تسعا" وهذا فيه الحكمة البالغة منه سبحانه. فمن المعلوم أن الرسول ﷺ كان مخاطبا لأهل الكتاب وأن أهل الكتاب يستعملون السنوات الشمسية وأما المسلمين فهم يستعملون السنوات القمرية. فالمطلوب هنا حساب المدة بعدد السنوات الشمسية ليوافق ذلك حساب أهل الكتاب وتحويل ذلك إلى عدد السنوات القمرية الذي

يستعمله المسلمين في تاريخهم. وبالحساب الصحيح يتبين الآتي:

عدد الأيام في السنة القمرية = 354 يوم

عدد الأيام في السنة الشمسية = 365 يوم

وبهذا يكون الفارق في عدد الأيام بينهما = 11 يوم

وعليه يكون في المئة سنة شمسية 36500 يوم وفي المئة سنة قمرية 35400 يوم. الفارق هو 1100

يوم. بتقسيم هذا الفارق على 354 نجد أن الفارق هو 3 سنوات قمرية. وبهذا يعلم أن لكل 100 سنة

شمسية توجد 103 سنة قمرية تقريبا. وعليه يكون في كل 300 سنة شمسية هناك 309 سنة قمرية.

ويكون الفارق هو فقط تسعة سنوات ولهذا جاء لفظ "وازدادوا تسعا" للبيان فهي 300 سنة شمسية

بالنسبة لأهل الكتاب وزيادة عليها 9 سنوات لتوافق بذلك 309 سنة قمرية بالنسبة للمسلمين. وهذا ما

يعرف في علم الحساب بوحدة قياس الأعداد. فبالحساب يمكن تحويل وحدة قياس من نوع إلى آخر.

وفي هذا المثال كانت وحدة القياس هي الزمن وبه علم التحويل من القياس الشمسي إلى القياس

القمرى والخلاف بينهما لا يعني التعارض بل لكل وحدة قياس حسابها الخاص. وهذا فيه بيان

حكمة الله وعلمه سبحانه وأن كلامه هو الحق لهذا جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا

لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا

﴿٢٦﴾ الكهف. ويقول ابن كثير في تفسير الآية التي ذكر فيها عدد السنوات: هذا خبر من الله تعالى

لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل

ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن

تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: (وازدادوا

تسعا) [هـ].

4.2.2 مكوث الوحي من عيسى عليه السلام إلى محمد ﷺ

وفي مثال أخريشه المثال السابق في تفسير قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَتَرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ المائدة. يقول ابن كثير في تفسيره عن هذا: (على فترة من الرسل) أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم. وهو أنه ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين؛ ولهذا قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ الكهف. أي: قرية، لتكامل الثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب [هـ]. ولهذا فقد فهم المفسرين رحمهم الله بالقران الفرق بين عدد السنوات الشمسية والقمرية كما تقدم. وفيه أيضا عناية السلف رحمهم الله بالحساب وحساب الزمن وتحويله من وحدة قياس إلى أخرى.

4.2.3 عدد ساعات اليوم واللييلة

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً، لَا يُوجَدُ فِيهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ إِيَّاهُ فَاتِمَسُّوْهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ. (أبو داود (1048)، والنسائي (1389) وصححه الألباني). وفيه أن النبي ﷺ علم أن عدد ساعات اليوم بالمتوسط هو 12 ساعة. فإن كان لعدد ساعات اللييلة مثل ذلك كانت عدد ساعات اليوم واللييلة معا 24 ساعة. وهذا ما اعتاد عليه الناس في زماننا من حساب عدد ساعات اليوم واللييلة. فإن ساعات اليوم واللييلة تطول وتقصر خلال العام وتتغير بتغير المكان ولكن بالإجمال فهي 24 ساعة. وهذا فيه دليل نبوته ﷺ ففي زمانه لم يكن هناك الساعات

الدقيقة التي نعرفها اليوم.

وعدد ساعات اليوم والليل تضبط بالتاريخ الشمسي كما موضح في

وكما موضح أن الأماكن القريبة من القطبين يغيب فيها النهار أو الليل خلال 24 ساعة وبهذا يمضي اليوم كاملاً ويتعذر ضبط أوقات الصلاة بالطريقة المعتادة. وقد رخص أهل العلم على جواز ضبط وقت الصلاة فيها كما اعتاد الناس في سائر أوقات السنة أو قياساً على غيرها من الأماكن. فعن التَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ، قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ فَقَالَ "إِنْ يَخْرُجَ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَيِّجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجَ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمْرُؤُ حَيِّجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ فَإِنَّهَا جَوَارِكُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ". قُلْنَا وَمَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ قَالَ "أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٌ وَيَوْمٌ كَشْهَرٌ وَيَوْمٌ جَمْعَةٌ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ". فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَتْ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ قَالَ "لَا أَقْدِرُوا لَهُ قَدْرَهُ ثُمَّ يَنْزِلُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابٍ لِدِّ فَيَقْتُلُهُ" (صححه الألباني). وفي هذا يقول الشيخ ابن باز رحمه الله: الواجب على سكان هذه المناطق التي يطول فيها النهار أو الليل أن يصلوا الصلوات الخمس بالتقدير إذا لم يكن لديهم زوال ولا غروب لمدة أربع وعشرين ساعة، كما صح ذلك عن النبي ﷺ في حديث النّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، المخرج في صحيح مسلم في يوم الدجال الذي كسنته، سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: اقدروا له قدره. وهكذا حكم اليوم الثاني من أيام الدجال، وهو اليوم الذي كشهروا، وهكذا اليوم الذي كأسبوع. أما المكان الذي يقصر فيه الليل ويطول فيه النهار أو العكس في أربع وعشرين ساعة فحكمه واضح: يصلون فيه كسائر الأيام، ولو قصر الليل جداً أو النهار؛ لعموم الأدلة، والله ولي التوفيق [هـ]. وهذا فيه أهمية الحساب وتسجيل بيانات أوقات الصلاة حتى يمكن تقديرها تقديراً صحيحاً بقدر المستطاع إن تعذر معرفة ذلك من بغياب الليل أو النهار خلال 24 ساعة كما في فتنة المسيح الدجال.



شكل 1.4: عدد ساعات النهار بحسب خطوط العرض

4.2.4 نسبية الوقت في القرآن

قال تعالى في كتابه: وَيَسْجُدُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ الحج. ويقول ابن كثير في تفسيره: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه. وهذا فيه الدليل على أن حساب الوقت نسبي ويختلف كما أخبر الله سبحانه وتعالى في أكثر من موضع. ومن ذلك قوله تعالى: يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥٥﴾ السجدة. وأيضا قوله تعالى: تَرْجِعُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤١﴾ المعارج. ففي هذه الآيات الدليل الواضح على أن الوقت لا يجري بنفس السرعة فبين الله تعالى ذلك بالنسبة لوقتنا في قوله "مما تعدون".

ويمكن توضيح ذلك المعنى عن طريق حساب فارق الوقت بين الجنة والأرض. فإن حملنا معنى

"عند ربك" أي في الجنة كما في قوله: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ آل عمران، فهذا يكون لكل يوم واحد في الجنة ألف سنة مما نعد في الأرض كما يلي:

$$1 \text{ يوم في الجنة} = 1000 \text{ سنة في الأرض}$$

نبدأ أولاً بتحويل اليوم الواحد إلى ثواني، فإن علمنا أن اليوم به 12 ساعة بالمتوسط (اليوم والليلة معا 24 ساعة) كما في المثال السابق، وأن الساعة بها 60 دقيقة وأن الدقيقة بها 60 ثانية، عليه يكون اليوم الواحد به 43200 ثانية. ثانياً نحسب عدد الأيام في كل 1000 سنة. فإن إستخدمنا عدد الأيام في السنة القمرية يكون عدد الأيام الكلي في كل 1000 سنة قرية 354000 يوم. وإبقاء الميزان وإستبدال وحدات القياس يكون الناتج:

$$43200 \text{ ثانية في الجنة} = 354000 \text{ يوما في الأرض}$$

فإن قسمنا عدد الثواني في الجنة على عدد الأيام يكون:

$$1 \text{ ثانية في الجنة} = 8.1944 \text{ يوما في الأرض}$$

وعليه بمرور ثانية واحدة في الجنة تمر علينا 8 أيام و4 ساعات و39 دقيقة و22 ثانية في الأرض مما نعد ونحسب. وهذا لا يجب أن يفهم أن الوقت في الجنة بطيء جداً بالنسبة لمن هو في الجنة ولكن فقط بالنسبة للأرض. فالوقت هو نفسه كوحدة قياس ولكن قياس نفس القيمة في نطاق مختلف لا يلزم التساوي وإنما كل قياس يرجع لنطاقه الذي قيس فيه.

وهذه الظاهرة تم إكتشافها حديثاً في بداية القرن العشرين على يدي العالم الفيزيائي ألبرت آشتاين وتعرف بظاهرة التمدد الزمني وهي جزء من النظرية النسبية. وهي ظاهرة مثبتة ويمكن حسابها بدقة

باستخدام مفاهيم معروفة وأهمها ثابت سرعة الضوء في الفراغ. وهي ظاهرة مهمة جداً وتستخدم لموائمة أنظمة الإتصال وأنظمة تحديد الموقع مع الأقمار الصناعية. بدون الأخذ بعين الإعتبار ظاهرة التمدد الزمني كل هذه الأنظمة تتعطل.

ومن المثبت أيضاً في النظرية النسبية أن مرور الوقت نسبي وهو يبطأ مع زيادة السرعة أو الجاذبية. ومن المعلوم أن الجاذبية تزداد مع زيادة كتلة الكواكب. وبهذا يعلم أن الوقت على القمر يمر أسرع بقليل بالنسبة للأرض بينما الوقت على الأرض يمر أسرع بالنسبة للشمس. وهذا الفارق يزيد من زيادة الفرق في الحجم. وعليه فإن مرور الوقت في الجنة أبطأ بكثير من الأرض دل على عظم الجنة بالنسبة للأرض. وهذا يتوافق مع قوله تعالى: وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ آل عمران.

4.2.5 ظاهرة الغلاف الجوي

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ يس.

4.2.6 ظاهرة تعاقب الليل والنهار

تَوَلَّجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ آل عمران.

يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ النور.

4.2.7 ظاهرة توسع الكون

من أعظم بلايا هذا الزمان هو تصوير ووضع العلم في إطار منفصل عن الإيمان بل والاسوأ في إطار انكار وجود الخالق وهذا والله من اعظم الضلال والجهل.

بينما في الحقيقة العلم هو الطريق للتأمل في آيات الله الكونية والتي جميعها تنادي بوجود الخالق وقدرته وعظمته. فكل ما نراه من تناسق في هذا الكون من ليل ونهار وشمس وقر ومطر وشجر وحجر ودواب كلها من آيات الله الكونية.

ومن اعظم آيات الله الكونية أن الله عز وجل لم يجعل السماء ثابتة بل جعلها تتوسع فلو كانت ثابتة لقال الكثير ان هذا الكون ليس له بداية وهي ثابتة ازلا وبهذا يتكرون وجود الخالق. ولكن الله جل جلاله جعل السماء تتمدد ليكون هذا التمدد دليلا على ان اطراف السماء كلها جاءت من نقطة واحدة وهذا هو الدليل القاطع على بداية الكون.

الإقرار بأن هذا الكون له بداية كما تشير كل الأدلة والمفاهيم التي توصل لها البشر في القرن العشرين ومنها ما جاء في نظرية الانفجار العظيم يبطل كل ما تم طرحه من أصحاب النظريات الإلحادية إذا يتعذر على شي له بداية أن يبدأ من لا شيء.

قال تعالى: أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ^ط [الأنبياء: 30]

فقد اتفق المفسرون على ان معنى هذه الآية ان السماوات والأرض كانتا ملتصقتين وهذا ما يتوافق مع فهمنا اليوم بناء على المشاهدة أن الكون بدأ من نقطة واحدة.

فقد جاء في تفسير القرطبي ان ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة قالوا في تفسير هذه الآية: يعني أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء. وكذلك قال كعب: خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها ففتحتها بها ، وجعل السماوات سبعة والأرضين سبعة. وقول ثان قاله مجاهد والسدي وأبو صالح: كانت السماوات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقتها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرضين كانت مرتبة طبقة واحدة ففتقتها فجعلها سبعة وقال الطبري في تفسير هذه الآيات: أو لم ينظر هؤلاء الذي كفروا بالله بأبصار قلوبهم، فيروا بها، ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا رتقا: يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين، وقد جاء في تفسير ابن كثير:

ألم يروا (أن السماوات والأرض كانتا رتقا) أي: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصقاً متراكماً، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، ففتقت هذه من هذه. فجعل السماوات سبعة، والأرض سبعة، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأثبتت الأرض: ولهذا قال: (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً ، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء

ويقول جل جلاله: وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ [الذاريات: 47]

وقد جاء في تفسير السعدي رحمه الله: بِأَيْدٍ أي: بقوة وقدرة عظيمة وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ لأرجائها وأنحاءها،

4.2.8 ظاهرة المجال المغناطيسي

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ الأنبياء.

الحساب الكوني

5.1 مقدمة

إن أفضل طريقة لفهم علم الحساب هو التأمل والتفكر في الظواهر الطبيعية التي خلقها الله وومحاولة حسابها. فهي المرجع لنا حتى نتحقق من صحة وسلامة الحساب. وهذا النهج هو نهج القرآن وهو أفضل الطرق وأحسنها. ويمكن دراسة علم الحساب مجردا من أي تطبيقات وهذا أيضا نهج معروف. ولكن الجمع بين علم الفيزياء والحساب لمحاولة محاكاة الظواهر الطبيعية من أفضل الطرق لتطوير علم الحساب. وهذا معروف حيث تفوق الباحثين الذين جمعوا بين الحساب والفيزياء مثل نيوتن وأينشتاين وفورير على غيرهم ممن درس علم الرياضيات المجرد فكانوا روادا في ذلك.

ولهذا يكون الطريق للبحث وفهم علم الحساب كما يلي:

1. التفكير في آيات الله الكونية والتأمل فيها ومحاولة فهمها وربطها ببعضها البعض على وجه الإجمال.

2. حساب هذه الظواهر على إنفراد ومع التدرج في التعقيد حتى يمكن حسابها بالدقة المطلوبة

ومن عدة طرق وجوانب.

3. الجمع بين الظواهر المترابطة ومحاولة فهم ترابطها وتأثيرها على بعضها البعض وحساب ذلك لبناء فهم أكثر شمولاً ودقة.

4. تلخيص القواعد الحسابية بناءً على ما سبق وتطبيقها في فهم ظواهر أخرى أكثر تعقيداً أو تصحيح الحساب فيما ينفع الناس في أمور دينهم ودنياهم.

5.2 جداول

فيما يلي مثال على جدول:

العنوان 1	العنوان 2	العنوان 3
الخلية 1	الخلية 2	الخلية 3
الخلية 4	الخلية 5	الخلية 6

جدول 1.5: مثال على جدول

5.3 مراجع باستخدام BibTeX

لإضافة مراجع باستخدام BibTeX، يمكن استخدام الملف التالي: `references.bib`

```
@book{example
```

```
author = "المؤلف",
```

```
title = "عنوان الكتاب",
```

```
publisher = "دار النشر",
```

```
year = "السنة"
```

```
}
```

ثم تضمين المراجع في المستند الرئيسي:

```
\bibliographystyle{plain}
```

```
\bibliography{references}
```

5.4 نص الفصل الثاني - الصفحة الثانية

هذه الصفحة الثانية للفصل الثاني تحتوي على نص إضافي لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

5.5 نص الفصل الثاني - الصفحة الثالثة

هذه الصفحة الثالثة للفصل الثاني تحتوي على المزيد من النصوص لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

الذكاء الاصطناعي

6.1 مقدمة

6.2 المعرفة والوعي والإدراك

هناك نقاش مهم يتعلق بموضوع ما إذا كانت نماذج الذكاء الاصطناعي العام ستكون قادرة على المعرفة والإدراك والوعي في المستقبل القريب (تقريباً مع حلول 2030). وحيث أن أنه على عدة أمور وخاصة للمسلمين.

أغلب الباحثين في مجال الذكاء الاصطناعي يعتقدون أن نماذج الذكاء الاصطناعي العام والتي ستكون لها قدرات معرفية تتجاوز قدرة الإنسان في جميع المجالات، ستكون قادرة على الإدراك وسيكون لها وعي. وبطريقة غير مباشرة هذا ما هو إلا مقدمة للقول بأن هذه النماذج لها أرواح مثلها مثل البشر.

بالمختصر هذا أمر خطير يمس عقيدة المسلمين، والشرح كالآتي.

أولا يجب التنويه لأمر هام جدا ألا وهو أن المعرفة والإدراك والوعي كلها تتطلب مشاعر وهي أمور تختص بها الروح والتي هي من أمر الله التي بها يبث الله الحياة في خلقه. وهذا معروف بما نعلمه عن الروح بما دلت عليه البراهين في الكتاب والسنة من أن الروح تنفخ في الجنين في بطن أمه وتصعد إلى السماء وتهبط وتقبض في النوم وترسل وتعذب في القبر وتضرب ضربة يسمعها كل شيء إلا الثقلين. فالأنس والجن والحيوانات كلها ذات أرواح وتكون حية فقط عند وجود الروح في الجسد وتموت بمفارقة الروح الجسد. وهذا موضوع بحث فيه الإمام ابن القيم في كتابه الروح لمن أراد أن يطلع. وقد ذكر الشيخ ابن باز رحمه الله أن الحياة نوعا: حياة روح وحركة مثل الإنسان والحيوان والجن وحياة نمو فقط مثل النباتات وهي ليس لها خصائص حياة الروح مثل السمع والبصر والحركة. أنظر الرابط أول التعليق.

ولهذا فإن الإدعاء بأن نماذج الذكاء الإصطناعي العام سيكون لها وعي وإدراك بمعنى القدرة على الإحساس والاستقلال بذاتها كما هو معروف من خصائص الروح هو أمر ينافي عقيدة المسلمين. القدرات المعرفية الخارقة المجردة من الإحساس لا تلزم الوعي والإدراك. فالحاسب الإلي له قدرة كبيرة لحفظ ومعالجة وتحليل كميات كبيرة من البيانات وتزداد هذه القدرة مع زيادة القدرة الحاسوبية والتخزينية. ولكن هذا لا يجعل الحاسب واعي أو مدرك.

الملحق

7.1 مسألة العدل مع الكفار

الدولة الكافرة العادلة لها وعليها، فيدم كفرها ويحمد عدلها، ولا يرد عليها كل أمرها، بل يحمد ما فيها من العدل والإنصاف والمحاسن الإنسانية الموافقة للفطرة، ويذم ما فيها من كفر وفسق وعدوان على دين الله ورسله وهذا ما أوصانا به جل جلاله في كتابه العظيم فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ^ط وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ ^ج أَلَّا تَعْدِلُوا ^ط اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ المائدة. وقال القرطبي في تفسيره: ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه. وقال ابن كثير في تفسيره: وقوله: (ولا يجرمكم شَنَا ن قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا) أي: لا يجعلكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا [هـ].

وقول شهادة الحق في الدولة الكافرة لا يعني موالاتها وإن كانت عادلة، بل هذا ما هو إلا شهادة الحق وقد تقدم بيان ذم ما فيها من كفر وفسق وعصيان لدين الله ورسله. وهذا لأن الله جل جلاله أمرنا بالعدل في القول ولو على أنفسنا فقال جل في علاه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ

شُهِدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ^ج إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا^ط فَلَا تَتَّبِعُوا
 الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ النساء. وقد جاء في
 تفسير ابن كثير: وقوله (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس
 إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: (ولا
 يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) [المائدة: 8] [هـ]. ومن ذلك ما صح عن
 جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: أفاء الله عز وجل خير على رسول الله صلى الله عليه وسلم،
 فأقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة،
 فخرصها عليهم، ثم قال لهم: يا معشر اليهود، أنتم أبغض الخلق إلي، قتلتم أنبياء الله عز وجل، وكذبتم
 على الله، وليس يحبني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسقي من تمر، فإن
 شئتم فلکم، وإن أبيت فلي، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، قد أخذنا، فخرجوا عنا. (صحيح على
 شرط مسلم، تخریج المسند لشعيب، تخریج سنن الدارقطني). وهذا فيه أن اليهود عرفوا أنه بالعدل قامت السموات
 والأرض وهذا ما سبق بيانه في الميزان الكوني، وأن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أقام فيهم
 الميزان الشرعي وأقر لهم بذلك بعدله معهم.

وقد جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس قوله: "كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم
 أو الوالدين والأقربين"، قال: أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبناءهم، ولا
 يحابوا غنياً لغناه، ولا يرحموا مسكيناً لمسكنته، وذلك قوله: "إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا
 تتبعوا الهوى أن تعدلوا"، فتذروا الحق، فتجوروا [هـ]. وأيضاً جاء في تفسير الطبري: حدثنا سعيد،
 عن قتادة: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله" الآية، هذا في الشهادة. فأقم الشهادة،
 يا ابن آدم، ولو على نفسك، أو الوالدين، أو على ذوي قرابتك، أو شرف قومك. فإنما الشهادة لله

وليست للناس، وإن الله رضي العدل لنفسه، والإقساط والعدل ميزانُ الله في الأرض، به يردُّ الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على الحق. وبالعدل يصدِّق الصادق، ويكذب الكاذب، ويردُّ المعتدي ويُرِنُّه، تعالى ربنا وتبارك. وبالعدل يصلح الناس، يا ابن آدم "إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما"، يقول: أولى بغنيكم وفقيركم. قال: وذكر لنا أن نبيَّ الله موسى عليه السلام قال: "يا ربِّ، أي شيء وضعت في الأرض أقلّ؟"، قال: "العدلُ أقلُّ ما وضعت في الأرض". فلا يمنعك غنى غنيٍّ ولا فقر فقير أن تشهد عليه بما تعلم، فإن ذلك عليك من الحق، وقال جل ثناؤه: " فالله أولى بهما " [هـ].

7.2 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين

إن من المسائل المهمة لأمة الإسلام بالعموم هي مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين. فهذه مسألة خطيرة وعظيمة يجب ألا يتكلم فيها إلا بعلم. وقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على الدولة المسلمة الظالمة وبالأخص لما يترتب على ذلك من ظلم الذي يخالف الميزان الفطري والذي به يكون فساد المصالح العامة في الدنيا كسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض، والتي هي أشد ظلماً في الدنيا من الظلم الذي يكون بخالفة الميزان الديني كمنع الزكاة أو الحكم بغير ما أنزل الله من باب الهوى. وقد تقدم معنا أن الله جل جلاله قدم في الدنيا إقامة الميزان بين الناس بالعدل على إقامة الحق في نفوس الناس لتقديم المصلحة العامة على الخاصة. ولذلك فقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على ولاة الأمر المسلمين ولو كانوا ظالمين وعاصين لله ولرسوله ما أقاموا فينا الصلاة وكفى بنا أن نبغضهم في الله على ما عصوا به الله ورسوله كما جاء عن عوف بن مالك الأشجعي أن النبي ﷺ قال: خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ،

وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشَرَارُ أَيْمَتِكُمُ الَّذِينَ تَبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَابِذُهُم بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وَلَا تَكُمُ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَارْكُوهَا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى، قَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهُ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ (صحيح مسلم، وصححه الألباني في تخریج صحاب السنة).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله أن النبي ﷺ قال: يَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنْوُونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رَجُلٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثَمَانِ إِنْسٍ، قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ، فَاسْتَمِعْ وَأَطِيعْ (صحيح مسلم). وقد أوصى بذلك النبي ﷺ في حجة الوداع فمن أم الحصين الأحمسية أنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مَجْدَعٌ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ (صحيح الترمذي، وصححه الألباني). وأيضاً حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيُونُ وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مَوْدِعٌ فَاذَا تَعَاهَدُوا إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مِنْ يَعِشُ مِنْكُمْ يَرِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ (صحيح الترمذي، وصححه الألباني).

فالأدلة في نهي الرسول ﷺ على الخروج على الولاة العصابة كثيرة جداً، فلا يسعنا الخروج على ولاة الأمر الظالمين والعاصين لله ورسوله ليس مجاملة أو حبا لهم ولا مهادنة في دين الله وإنما إلزاماً بأمر النبي ﷺ حقنا للدماء وتقديماً للمصلحة العامة على الخاصة، ولكن نبغضهم في الله على ما عصوا به

الله ورسوله ولا نصدقهم ولا نعينهم على ظلمهم كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال لكعب بن عجرة: أعاذك الله من إمارة السفهاء، قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدي، لا يقتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني، ولست منهم، ولا يردوا عليّ حوزي، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يُعينهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم، وسيردوا عليّ حوزي (صحيح ابن حبان). ويكفي ولي الأمر المسلم الظالم ذلاً وخسراناً أن أن النبي ﷺ قد تبرأ منه كما جاء في حديث سعد بن تميم أنه قيل: يا رسول الله، ما للخليفة من بعدك؟ قال: مثل الذي لي، ما عدل في الحكم، وقسط في القسط، ورحم ذا الرحم، فمن فعل غير ذلك فليس مني ولست منه (صحيح، تخرّج سنن أبي داود، وصححه الألباني).

ويُفرق بين النصح لولي الأمر الظالم وبين إنكار المنكر بالعموم، فإنكار المنكر بالعموم واجب على كل مسلم، وبالأخص رد الظالمين لمن استطاع أن يغير ويصلح بدون أن يترتب على ذلك مفسدة أعظم، فقد جاء عن أبي بكر الصديق أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)، وإننا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ وإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدر أن يُغيروا، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقابٍ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني). ولقد بايع النبي ﷺ أصحابه على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم كما جاء ذلك عن جرير بن عبد الله أنه قال: بايعتُ النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، فلقنني، فيما استطعتُ، والنصح لكلِّ مسلمٍ (صحيح مسلم). فالنصح يكون لكل مسلم سواء كان ولي الأمر وغير ولي الأمر ويكون بحسب الحاجة وبالْحِكمة والموعظة الحسنة. ومن المصلحة في أغلب الأحوال أن تكون النصيحة لولي الأمر بالسرا

قد يترتب على الجهر بها من الفتن أو التحريض. ولهذا فقد قال النبي ﷺ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لَذِي سُلْطَانٍ فِي أَمْرِ فَلَا يَبْدِهِ عِلَانِيَةً وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ فَيُخْلُو بِهِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَلِكَ وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ (صححه الألباني في تخریج کتَاب السنة). فلو كانت هذه النصيحة لسلطان ظالم فهذا من أفضل الجهاد كما جاء ذلك عن أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلِ، وَفِي رَوَايَةٍ: كَلِمَةُ حَقٍّ، عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ (صحيح ابن ماجه، وصححه الألباني).

وأما الخروج على ولاة الأمور فشرطه أن يكون عندهم كفرا بواحا ظاهرا لا شك فيه. فقد جاء عن عبادة بن الصامت أنه قال: دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعَنَا، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَآثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، قَالَ: إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَ كُفْرٍ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ (صحيح مسلم). ومن المعلوم أنه ليس كل حكم بغير ما أنزل الله كفر ومن ذلك بلا شك القوانين الوضعية التي لا تعارض كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ومثال ذلك الأمور التي فيها مصالح الناس كالأموال التنظيمية المباحة فهذا أمر مطلوب ولازم وبه يؤجر ولي الأمر لما في ذلك من نفع عام لجميع المسلمين، كت تنظيم طرق سير السيارات، وقوانين حماية البيانات، وغيرها من القوانين التي بها تحفظ الدماء، والأموال، والأعراض. والكفر البواح لا يكون بالحكم بغير ما أنزل الله مع الإقرار بالذنب دون الاعتقاد بجواز ذلك والجهر به كمن يفعل ذلك من باب الهوى. وإنما الكفر البواح هو الاعتقاد مع الجهر أن الحكم المخالف لشرع الله وكتابه هو حكم جائز على وجه التفضيل أو المساواة أو الرد أو غير ذلك. ومن ذلك من يعتقد بأفضلية حكم غير الله على حكم الله أو مساواة حكم غير الله مع حكم الله أو جواز حكم غير الله أو رد حكم الله، المخالف لشرع الله وكتابه والجهر بذلك. ولقد بين ذلك الشيخ ابن باز رحمه الله في بيان القوانين الوضعية والآراء البشرية التي تخالف شرع الله فقال: الحكم بغير ما أنزل الله [بالقوانين التي تخالف شرع الله] أقسام،

تختلف أحكامهم بحسب اعتقادهم وأعمالهم، فمن حكم بغير ما أنزل الله يرى أن ذلك أحسن من شرع الله فهو كافر عند جميع المسلمين، وهكذا من يحكم القوانين الوضعية بدلا من شرع الله ويرى أن ذلك جائز، ولو قال: إن تحكيم الشريعة أفضل فهو كافر لكونه استحل ما حرم الله. أما من حكم بغير ما أنزل الله اتباعا للهوى أو لرشوة أو لعداوة بينه وبين المحكوم عليه أو لأسباب أخرى وهو يعلم أنه عاص لله بذلك وأن الواجب عليه تحكيم شرع الله [وإنما خالفها فعلا لا عقيدة لهوى] فهذا يعتبر من أهل المعاصي والكبائر ويعتبر قد أتى كفرا أصغر وظلما أصغر وفسقا أصغر كما جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن طاووس وجماعة من السلف الصالح وهو المعروف عند أهل العلم. والله ولي التوفيق (مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز: 4/416).

7.3 مسألة التفرق في الدين

7.4 مسألة تجريح الأعيان

يقول شيخ الإسلام بن تيمية: وليعلم أن المؤمن تجب موالاته، وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته، وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب؛ ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه، والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه، والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه، والعقاب لأعدائه. وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة: استحق من الموالة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعادة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص

الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة، وخالفهم الخوارج، والمعتزلة، ومن وافقهم عليه، فلم يجعلوا الناس لا مستحقاً للثواب فقط، ولا مستحقاً للعقاب فقط.

وقال أيضاً: معلوم أنه في كل طائفة بر، وفاجر، وصديق، وزنديق، والواجب موالاة أولياء الله المتقين من جميع الأصناف، وبعض الكفار والمنافقين من جميع الأصناف، والفاسق المِلِّيَّ يعطى من الموالاة بقدر إيمانه، ويعطى من المعادة بقدر فسقه، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن الفاسق المِلِّيَّ له الثواب والعقاب إذا لم يعف الله عنه، وإنه لا بد أن يدخل النار من الفاسق من شاء الله، وإن كان لا يخلد في النار أحد من أهل الإيمان، بل يخلد فيها المنافقون كما يخلد فيها المتظاهرون بالكفر. اهـ.

وراجع للفائدة الفتوى رقم: 113503.

المصادر